البكّاءة

رواية: البكاءة

اسم الكاتب: جيلالي عمراني

تدقيق لغوي وإخراج فني: عبد الله أسامة

تصميم الغلاف: لينا شاهين

رقم الإيداع: ٢١٦٨٣/ ٢٠١٨

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٠٥٦-٦٠-٢

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية،

أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ كتابيٍ من الناشر؛

يُعرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية.

شهرزاد للنشر والتوزيع

shahrazadpub@gmail.com

للنشر والتوزيع

Publishing & Distribution

البكّاءة

(رواية)

جيلالي عمراني

بمثابة إهداء:

تأخرت عن تأليف هذا الكتاب بالضبط أربعة عشر عامًا، ثمة أسباب منعتني عن فعل ذلك، بعضها يتعلق بالخوف أو ما تبقى من الخوف الهستيري الذي سببه زوار الليل، وبعضها يتعلق باللاجدوى من فعل الكتابة؛ لذا أهديه بشكل خاص إلى ذاك الشاب الذي لا أعرفه ولم ألتق به يومًا، أنتم أيضًا ربما لا تذكرون تفاصيل وجهه، المؤكد أنه لن يقرأ هذه الرواية في يوم من الأيام، ذاك الشاب الذي لا يعرف أن حياته تنتهي وهو في مواجهة متطرفين قدموا من أقصى الجنوب، من صحراء ليبيا، إما مؤامرة غربية أو مجرد جنون، مع ذلك استطاع أن يرفع يده نحو جرس الإنذار، ربما لولا ذاك الجرس ما استيقظتُ من خمولي الشخصي الذي امتدّ كل هذه السنوات.

وإليها: سامية، تلك الصغيرة التي تذكرتني رغم جحودي، رغم نسياني النهائي لعائلتها بعد كل الألم الذي عاشته، كان بإمكانها إرسال الوثائق إلى أقرب دار نشر صغيرة، إلى المزبلة، لها أكثر من حل غير الحلّ الذي اهتدت إليه باتصالها بي ذات شتاء. إليكما مع اعتذاري الكامل على التأخير غير المتعمد.

سفيان عبد الجليل/ مدينة ب.

«كيـف أمكـن لمسـترخٍ لا عـلاج لـه مثـلي ينهـي هـذا الكتـاب حتـى ولـو كان صغـيرًا، والتفسـير المعقـول هـو أننـي تأخـرت أربعـة عـشر عامًـا لكتابتــه».

أنطونيو سكارميتا

رواية: ساعي بريد نيرودا

-١-

متاهـــــة

(١)

رنّ هاتفـي المحمـول رنّـة أولى ثـم ثانيـة، لأشـهر لم أسـمع هـذه الرنّـة المميّـزة التـي اخترتهـا عـن حـبّ لتزيـدني إلهامًـا في فنـون النـوم والاسـترخاء الطويـل. أخـذتُ جهـاز الهاتـف مـن جيـب سـترتي، محـاولًا قـراءة الرقـم الجديـد...٠٦٦. فكـرت في عـدم الـرّد لكـن الفضـول دفعنـي للاسـتجابة للرّنـة الثّالثـة. كأني أنتظـر صوتًـا مدهشًـا، غـير مألـوف قـد يلهمنـي في هـذه البقعـة الرماديـة حيـث ألتـف وأتدحـرج نحـو الفنـاء.

قالت بغير غنج:

ألو

نعم.

سيد سفيان؟

نعم... أنا، ممكن أعرف من معي؟

أنا سامية.

صـوت رخيـم، شـاعريّ، واعـد. مبـاشر. جعلنـي أسـتعدّ للمزيـد مـن القـول والشّـعر في مسـاء ثقيـل مـن مسـاءات المدينـة، للتـو رغبـتُ في العـودة إلى البيـت حيـث أنـام. أضطجـع كميـت لا جـدوى مـن تسـكعي في مثـل هـذا الوقـت. أضافـت:

معذرة أستاذ «سفيان» أنا ابنة صديقك «هشام عبدي» أنا سامية.

صمت مثير، في انتظار مبادرة من الآخر، أحسستُ بإغماء أو دوران أو هزّة عنيفة، كلماتها أعادتني إلى الخلف، إلى الماضي الذي لم يتوقف يومًا عن أسئلة معقدة وغامضة، كل يوم تبدو إجابات الأمس أكثر غموضًا وتعقيدًا. قالت بصوتها الطّفوليّ:

«نعم أستاذ، أنا سامية.. بنت هشام عبدي..» لحظات معدودات كانت كافية لأقف قبالة وجه السيد «هشام عبدي»، بعينيه المفتوحتين الجاحظتين المعلقتين بسقف الصالة القديمة حيث كان مسجى.

- «ألو سيد سفيان...»

- «معذرة، صوتك ضيعني لكني الآن سأسمعك، مرحبًا ابنتي، سعيد باتصالك»

كنت كاذبًا في الحقيقة، لم أكن أسمعها، إذ باغتتني فجأة صدى تلك القصص والحكايات والحوارات وتلك الأشباح تحاصرني من كل الجهات، عاودتني تلك الأيام المرعبة بثقلها وزخمها، بشكوك وهذيان شخصيات حقيقية وأخرى ورقية، الأمر لم يكن سهلًا على شخص عانى من لعنة الذّكريات والأسى.. سامية أعادتني إلى نقطة الصفر، إلى المربع الأول، بالضبط حيث كنت قبل عقدين من الزمن ربما إلى لحظة ميلادي ككاتب ناشئ نشر قصصًا قصيرة، ثم رواية مشوّهة، شكلّت كل هذا البؤس والشقاء لمسالم مثلي، كل هذا الجنون الذي بعثرني طيلة تلك

السّنوات. إذ تجدني أتكوّر حول نفسي والأشباح تعذبني كيفما شاءت. كلهم يريدون الثأر من كاتب ركب موجة الشّهرة على ظهور ضحاياه وخياناتهم ونزواتهم. أقول أحيانًا لشخصي الذي فقد كلّ أسباب العيش، خاصّة عندما تتضاءل الحلول والخيارات في حياتي المعقدة بعد رحيل هشام: ماذا تبقى منك يا سفيان غير الألم والتوحد؟ قلتُ لها صادقًا:

«سامية... معذرة ابنتي، فاجأتني حقيقة بصوتك، لكني سعيد بالتأكيد»

نسيتُ كل ما يقال في مثل هذه المناسبات السّعيدة، كنت أجد الكلمات بصعوبة بالغة، أختارها بدقة كأني أبحث عن قارب نجاة أخيرًا، هي في الطرف الآخر من العالم، أتخيلها جميلة، متأنقة، مهما يكن، فهي لا تقل جمالًا عن والدتها السيدة «عبير» أو عن والدها السّيد «هشام عبدي». أضفتُ:

- «مفاجأة والله في زمن لا مفاجآت فيه، هل أقول لك نسيت المفاجآت والمناسبات والأصدقاء؟ أشكرك من أعماق قلبي، سامية قبل أن أعرف سبب اتصالك. لا علينا، سيهون كل شيء في حضرة صوتك وسؤالك عليّ».

- «شكرًا أستاذ، ربي يحفظك»

بعد برهة من الصمت والتيه وغياب رابط حقيقي بيني وبينها سوى والدها الذي يمكن أنه أحبني بالفعل، من يدري؟ أو كان يحبني

مـن بـاب العطـف، أو لأني صرتُ موضوعًـا يسـتحق منـه كل ذلـك الوقـت، ليفهـم حقيقـة، مشـاعري ومأسـاتي ككاتـب وكـزوج وكضحيـة للعبـة قـذرة، لم أكـن فيهـا بطـلًا في الواقـع، لعـلي فرحـت لسـاعات قليلـة أمـا بعـد ذلـك كنـت لا شيء، بـل كنـت مجـرد رقـم سـخيف في كسـتينغ لفيلـم قيـد الإخراج.

أفصحت عن سرّ مكالمتها قائلة:

- «هـل يمكـن أن أراك غـدًا، في أي مـكان غـير البيـت طبعًـا إذا كان ذلـك لا يسـبب لـك أي إزعـاج؟»

قلت بلا تردد:

- «نعم ممكن.. خير إن شاء الله؟»

- «خـيرًا أسـتاذ، المهـم أنتظـرك في قاعة الشـاي، شـارع «العقيـد عميروش»، طبعًـا تعرفه؟»

كنـت واعيًـا جـدًا ومسـتيقظًا، ومهتـمًا بالفعـل، ابنـة صديقـي في مـكان مـا في الجهـات الأربـع، هـي بـكل تأكيـد تريـد مسـاعدتي لهـا، بالتأكيـد لم تكـن مكالمتهـا تلـك بسـبب روايتـي الأولى التـي لم أكتبهـا قـط - الأصـح- الروايـة المشـوّهة التـي سـببتْ لي كل ذلـك الحيـف والعزلـة، بالتأكيـد ليـس بسـبب وسـامتي التـي افتقدتهـا بفعـل الأدويـة التـي تناولتهـا طيلـة سـنوات مـن العـذاب، ثمّـة أشـخاص في هـذه الحيـاة ينقذونـك دون أن تتوقـع منهـم فعـل ذلـك. أحببـتُ تكـرار اسـمها طيلـة عشـية خريفيـة، نسـيت أني حـيّ أرزق، أنّي أسـتطيع أن أسـاعد وأقـرأ وأضاجـع زوجتـي «بايـة» المضطجعـة

في مثل هـذا الوقـت عـلى السّريـر الخشـبيّ. الأصح لم تكـن لي الكلـمات الكافيـة لأشـكرها بالفعـل، لأنهـا الوحيـدة التـي اتصلـتْ بي عـلى رقمـي الخـاص، الوحيـدة التـي قالـت: «ألـو... سـيد سـفيان»

- «آه.. أعرف القاعة بلا شك ولو أني لم أدخلها يومًا»

- «شكرًا أستاذ، مساؤك سعيد».

«أستاذ؟»

كنـت محظوظًـا هـذا المسـاء، سـأكتب هـذا في كناشـتي حتـى لا أضيّـع الصّيـد والكلمـة الجميلـة. شـكرًا سـامية. تماديـت بعـد ذلـك في اسـتعراض لغتـي الشـعرية المتدفقـة مـن أعماقـي، مـن ذاكـرتي ككاتـب مولـع بالتجريب لـولا التخريـب الـذي طـال حيـاتي برمتهـا. فلغـة التّحنـان بـدأت تعـود إليّ بعـد كل هـذا الجفـاء غـير الإرادي، كلماتهـا الرقيقـة كانـت كافيـة لأسـترجع لغتـي واسـمي، وأصدقـائي، حتـى الذيـن لا أعرفهـم يعـودون إليّ تباعًـا. شـكرًا سـامية.. أعتقـد أنهـا عنـوان قصيـدة جديـدة، لم يكتبهـا الشـاعر الفرنـسي «لويـس أراغـون» أو نـزار قبـاني، كيـف لم يكتبهـا أحدهـم قبـل اليـوم؟ «سـامية..» سـأكتبها.

فكـرتُ في الموعـد، فكـرتُ في المشـوار الصباحـي الـذي سـيحملني إليـه القـدر صبـاح اليـوم التّـالي. تـراءتْ لي سـامية في أبهـى صـورة ألتقيهـا. لـن تكـون ابنـة هشـام عبـدي إن لم تكـن جميلـة وأنيقـة وشـاعرة، كـما كان يحلم دائمًـا بكتابـة ديـوان شـعري يمـدح فيـه جـمال زوجتـه «عبـير» التـي يذكرهـا

بـكل خـير في لقاءاتنـا الكثـيرة، يديـن لهـا بحياتـه وتفوّقـه، ديـوان شـعري يضاهـي بـه مـا كتبـه نـزار قبـاني. سـارعتُ في العـودة إلى البيـت، وقفـتُ مطـولًا أمـام المـرآة، كأني أكتشـف وجهـي مـن جديـد، نعـم هـو وجهـي الذي لم أره منـذ شـهور، صرتُ أكـره تلـك اللحظـات التـي يجـبرني فيهـا ذقنـي عـلى حلقـه، أكـره المـرآة، هـي دقائـق بمثابـة سـاعات أقضيهـا في الجَلـد الخفـيّ لجسـدي المترهـل. مطـولًا أتأمـل وجهـي، بحثًـا عـن الأخطـاء التـي يمكـن أن تكتشـفها فيَ سـامية، هـو أنـا بشـكلي الجديـد، بعـض الشّـعيرات البيضـاء أراهـا أول مـرة تفسـد منظـري بشـكل عـام، فقـدت كثـيرًا مـن السـمنة التـي تحيـط بجفـوني وذقنـي، والأكيـد أيضًـا، فقـدتُ بريـق العينـين لكنـي هـو أنـا سـفيان، بقليـل مـن الفـرح المفاجـئ الطـارئ. غمرتنـي سـعادة مـن حيـث لا أدري، لا توصـف تلـك الفرحـة الغامـرة المتدفقـة مـن كل مـكان في داخـلي، كأني أطـير فـوق السّـحاب، بـودي في تلـك اللحظـات النـادرة أن أقـول لهشـام كل الـذي لم أقلـه طيلـة كل الجلسـات واللقـاءات والبـوح المسـتمر لمـدة نصـف عـام أو أكـثر بقليـل، جلسـات مراطونيـة داخـل عيادتـه التـي صـارت محجًـا حقيقيًـا لي، وخـارج سـاعات الـدوام، تلـك اللقـاءات التـي تحـدث بالصدفـة عندمـا يخـرج مـن عيادتـه، يرافقنـي إلى مقهـى المسـرح الصغـير، في كل الحـالات نتحـدث عـن انهيـاري الـذي سـببه الخـوف غـير المـبرر. كنـت سـعيدًا بـذاك التطـور الـذي يحصـل بعـد الجلسـات المريحـة والمتعبـة في آن وهـو يأخـذني إلى غابـاتي الكثيفـة وأحلامـي وكوابيـسي. الآن فقـط أقـول لـه: كـم أنـا سـعيد يـا صديقـي اليـوم! أتذكـر تلـك اللحظـات وأنـا أسـتعطفك؟ سـنوات الاسـترخاء والمـوت البطـيء، كنـت أكـره نفسي وأنـا أترجـاك لإنقـاذي

مـن المـوت، حـين أسـتعطف بايـة وأصدقـائي الذيـن انفضـوا مـن حـولي لاحقًـا، بسـبب لغتـي الصّادمـة التـي أبديهـا تجاهـهـم. أسـتعطفهم جميعًـا لإنقـاذي مـن الضّيـاع، مـن التحلـل كنبـات مرشـح للقلـع. وأمـام مـرآتي أرى سـفيان الآخـر، كثعبـان يسـتبدل جلـده، أفكـر في رش جسـدي بالكامـل بقـارورة عطـر ماركـة smart، كنـت خفيفًـا ونشـيطًا ومسـتعدًا للاحتـمالات كافـة، التـي تنتظـرني مـع سـامية، مـع زوجتـي بايـة التـي تكـره جلـوسي إلى مكتبـي الخشـبيّ مدعيًـا كـذا مـرّة أني سـأكتب شـيئًا مهـمًا لكنـي لم أفعـل ولـن أفعـل، لعلهـا تفـرح بفشـلي ذاك المبرمـج بسـبب كائنـات ورقيـة صـارت تقلقنـي كلـما فكـرت بجـدّ في مواجهتهـا مـرّة أخـرى تلـك الأمسـية الحبـلى، المعطـرة بأريـج الذكريـات المتدفقـة، صحيـح بـين الحـين والآخـر أتـأوه لوخـز داخـلي، تجـدني أتشـنج ثـم أصرف دمعـة مباغتـة. رأيتهـا خلـف المشـهد، ليسـت تعيسـة ولا سـعيدة بالتحـوّل البطـيء الـذي أعيشـه منـذ مـدّة، كأني أخطّـط لـشيء ذي أهميـة قصـوى. غـير أنهـا تفاجـأت كـوني قبالـة المـرآة عـلى غـير العـادة، ثـم تـراني أجلـس إلى مكتبـي، أترنـم أغنيـة كنـت أحبهـا

«تفضـلي يـا آنسـة..» شـبه ثمـل أو خيّـل لي ذلـك. قالـتْ بـلا رغبـة حقيقيـة في الحديـث:

- «أراك تخطط لشيء ما هذا المساء؟»

كأنّها تريد خروجي فعلًا مع أني دخلت للتو فقط.

- «لا، ربمـا غـدًا صباحًـا، بي رغبـة في مسـح المدينـة مسـحًا، بي رغبـة حقيقيـة في قهـر الخـوف يـا بايـة، أشـعر بتحسـن طفيـف هـل شـعرت

بذلك؟ بدليل، استطعت أن أنهي قراءة رواية «كافكا على الشاطئ».. هي ساحرة وممتعة، آمل أن تقرئيها أنت أيضًا، ليست بالصعبة، هي طويلة لكنها مثيرة...»

أثرثر على أمل استبعاد الشّك من مخيلتها وأنا بالفعل أخطط لشيء مهم، من يدري لعله باب النّجاة الأخير. ابتلعها الصّمت واللامبالاة من ثرثرتي، كان متوقعًا منها، هي الميّالة إلى الصّمت دائمًا، تحرقني باحتمائها بهواية صارتْ تتقنها: الصمت. تجد نفسها وذاتها داخل مملكتها المظلمة، تلفها روائح الأدوية وتنفسي، وهذياني أثناء هيجاني في الرّبيع والصّيف، ثم أدخل مرحلة الخوف خريفًا وشتاء، يداهمني حينها ضعف عام في نشاطي من فرط الأدوية الكثيرة التي أتناولها، فأتمدد، خاويًا، بليدًا، نومي يشبه تمامًا الدخول إلى غابة كثيفة عائمة في مياه ضحلة، عليّ مقاومة التيارات الباردة والتماسيح والهلاك، حيث تأتيني الضربات من كل الجهات.

هي سنوات وأنا في دائرة مغلقة مظلمة، بدايتها بقرص منوم أتناوله ونهايتها باستيقاظي المتأخر على إيقاع ما، صراخ، مشادّات في الحيّ، تأفف باية، تذمر الوالد من ضيق ذات اليد، أزيز الرصاص في مكان قريب، بوق سيارات الإسعاف... لم تعلق بشأن الرواية «كافكا..» بل خرجت وعادت بسرعة، ثم وضعت فنجان قهوة على المكتب كأنها تتحداني إن عدت كما كنت قبل كتابتي لرواية «حرائر». لا أظن أن الشّك راودها، كما لم يراودها طيلة هذه السنين التي قبعتُ فيها

في البيـت مجـبرًا، كنـت في عـداد المـوتى في نظرهـم، مـوت سريـري عـذّب عائلتـي، لنقـلْ إنّهـم ينتظـرون اللّحظـة التـي يجدوننـي فيهـا بـاردًا. الأمـر طـال كثـيرًا، تحـوّل انتظارهـم المفجـع إلى نسـياني التـام، كنـت رقـمًا ثقيـلًا في البيـت، حتـى ولـو صرخـت بأعـلى صـوتي لا أعـرف إن يسرعـوا في المجـيء إليّ، لم أجـرب لكنهـا فرضيـة ممكنـة الوقـوع وهـذا مـا يقلقنـي بشـكل كبـير. شـكرتها عـلى كرمهـا بفنجـان قهـوة، ثـم اسـتغليت هدوءهـا الـذي يسـبق العاصفـة أن تسـاعدني في اختيـار بذلـة تليـق بي وربطـة عنـق، قلـت لهـا مازحًـا:

- «تعرفين يا باية أني فقدت حاسة الاختيار والذوق».

(٢)

ذهبت إلى مدينة البُويرة قبل الموعد بساعة، بداية مشواري الصباحي حتمًا يكون من رحبة «الزيت» الشّعبية بامتياز، هي زقاق ضيق، مليء بالحفر والدكاكين الصغيرة، ومكتبة «علي بابا» السّاحرة، على الأقل بالنسبة لي؛ فهي ساهمت بشكل ما في تكويني. لفترة طويلة جدًا لم أعبر زقاق «رحبة الزيت» حيث تحاصرك روائح الزيوت الأصلية والمغشوشة، تستفز التوابل كل حواسك من الشيح والنعناع الأخضر والقصبر والزعتر البري، أصوات الباعة الصغار والنشالين المحترفين، كسيمفونية صباحية توقظ فيك الخلايا شبه الميتة. حكايات قديمة تكاد تصرخ من جدران الحارة العتيقة الآيلة للسقوط في أية لحظة، وجوه العابرين المتأنقين يأخذون منك نظرة فاحصة شاملة كالعادة، تأصلت فينا العادة لقراءة الآخر باهتمام، أو ترى على الأرصفة وجوهًا مألوفة كانت هاهنا منذ كذا عام يلوكون قصصهم ويجترونها يوميًا كصحيفة يومية لا بدّ منها، يحمل كل سرد جديد زخمًا جديدًا ونفسًا أكثر واقعية من ذي قبل. المشي في الرحبة صباحًا يمنحك لذة القبض على لحظة تاريخية مستحيلة أن تعود، لكنك تشكّ أنها ملك يديك أو قاب قوسين من ذلك. في نهاية الزقاق الملتوي جادة أكثر تمدّنا تؤدي بك إلى الشّارع الرئيس، شارع «ستراسبورغ» أو شارع العقيد «عميروش» حاليًا، ربما سامية لا تعرف أنه الشّارع الأول الذي عرفته في حياتي واعتبرته مركز العالم، يومها كنت

منبهرًا بواجهاته ومقاهيه، وتصادف وأنت تسير منتشيًا بأشخاص من تونس ومصر وسوريا والعراق، تختلطُ اللهجات والنّغمات في سمفونية صباحية، تحتار أين أنت؟ كيف لمدينة صغيرة كهذه أن تجلب كل هذا الشعر والموسيقى والجمال أيضًا؟

قصدت قاعة الشّاي القريبة من حديقة «الأسود» الصّغيرة، كانت إلى وقت قصير قبلة سياح أجانب، لست أدري لِمَ اختارت سامية هذا الشارع المنسي، كان بالأمس القريب شارع والدها، ربما لما يحمله من رمزية تاريخية؟ هل بها لوثة التاريخ والجمال مثل والدها رغم اهتمامه بأشياء أخرى بعيدة عن التاريخ والشعر والفن؟ دخلت القاعة متعثرًا والعرق يتصبّب على كامل جسدي كأني أدخل لأنهب أو أنتحر، أحمل تحت إبطي ما تيسر من جرائد يومية كعادة الموظفين والعاطلين في وسط البلد، ليس في نيتي قراءتها بقدر ما هي برستيج ضروري وأنت تمشي في الشارع أو تجلس رفقة أنثى لا تعرف عنها سوى الاسم. رأيتها أمامي، رشيقة، زادتها النظارات الطبية جمالًا على سمرة صارخة تقطر عسلًا جبليًا. تعلقت عيناها بالباب الرئيسي، مشدوهة، متوترة هي الأخرى مثلي، هل كانت متلهفة حقًا لرؤيتي؟ أعرف أني لستُ نجمًا ولا روائيًا كبيرًا شغل الناس بكتاباته، كلّ ما في الأمر أني كنت في لحظة زمنية ما شخصًا مهمًا بالنسبة لسامية. اتجهت صوبها كأني أعرفها.

- «صباح الخير سامية».

وقفت كصفصافة عالية، مدّت يدها النحيفة جدًا نحوي قائلة:

- «أهلًا، أستاذ سفيان، سعيدة بمعرفتك».

- «بلا أستاذ، أنا عمك سفيان، العاطل عن العمل، الأصح ما زلت في حالة مرضية مستعصية. قبل كل شيء شكرًا لأنك اتصلت بي قبل انتحاري بقليل».

حاولت إبداء انزعاجها من تصرفات متهور حقيقي، ثم أردفتُ قائلًا:

- «طبعًا أمزح، المجانين أمثالي غير قادرين على الإقدام على فعل هكذا».

- «خوفتني أستاذ، والدي كان يقول أنك أقوى من المرض».

- «سعيد بهذا، إن شئت المرض يئس مني».

محرج جدًا من جلستي المشبوهة، حاولتُ قدر المستطاع ردم الهوّة بين كهل تجاوز عتبة الأربعين، فقد اللّذة في الجماع، في المشي، في السفر، في الحلم، وشابة في العشرينيات من عمرها، متوثبة، تعرف على ما يبدو ما تفعله وما تريده بالضبط من زخم الحياة. يبدو عليها التحفظ أيضًا بوضع مسافة بينها وبين محدثها حتى لا يختلط عليه الواقع بالوهم، بين المحتمل والمفترض. على الأقل هذا ما بدا لي في أول لحظة تبادلنا فيها أولى الكلمات الساخنة. طلبتُ شايًا بالنعناع، بينما سامية تلتهم شطائر البيتزا الإيطالية، غير مستعجلة، بين الحين والآخر تسترق النظر إلى وجهي، كأنها تقارن بين الصورة النمطية التي رسمها هشام عبدي عني والصورة التي تراها الآن، بكل خدوشها وترهل الوجه رغم

محاولتـي اليائسـة في إبـراز وسـامتي.

في قـرارة نفـسي أحدثهـا بلغـة التحنـان: «سـامية، متلهـف حقًـا لرؤيتك لا لـشيء سـوى لأجـد مـبررًا قويًـا ومقنعًـا لرؤيـة العـالم مـن جديـد، هـل تعرفين أن اتصالـك هـو في نهايـة الأمـر عمـل إنسـاني، اتصالـك هـو إنقـاذ لحالـة تسـير ببـطء نحـو الفنـاء، بالـكاد أخفـي منظـر القـبر المفتـوح وأنـا مسـجى عـلى أكتـاف المشـيعين، مـرارًا كنـت أعدّهـم واحـد اثنـان ثلاثـة.. أكـره تلـك الطريقـة التـي حملـوني بهـا وتلـك السرعـة التـي فبركوهـا ليتخلصـوا منـي في أسرع وقـت. كنـت مـشروع ميـت حقيقـة، أتناقـص، أذبـل كل لحظـة، حتـى عائلتـي لا تذكـرني في زاويتـي إلا في أوقـات خاصـة، أبقـى لسـاعات كاملـة داخـل متاهتـي كحلـزون صغـير، تضيـق بي الشـبكة المطاطيـة، تخنقنـي قبـل استسـلامي للنـوم المصطنـع وغصّـات كثـيرة تذبحنـي مـن الوريـد إلى الوريـد. صدّقينـي كنـت أنتظـر هـزة عنيفـة، أو صدفـة عجيبـة، أنتظـر امـرأة مـن الحلـم، تشـبهك تمامًـا، غـادة وبهيـة، تهـزّني مـن نومـي العميـق، ترفعنـي إلى أعـلى... اتصلـت أنـت، هـل كنـتُ أنتظـرك أنـت بالـذات؟ ممكـن. لا أعـرف كيـف، لكننـي متيقـن مـن صوتـك الـذي يـأتي مـن المسـتقبل، هامسًـا، يدغـدغ مشـاعري لأقـوم مجـددًا. مدهشـة هـذه الحيـاة التـي تقهرنـا حينًـا وتمتعنـا أحيانًـا، مـن يـدري مـا تخفيـه أيضًـا؟»

أنهت الشطيرة، رفعت عينيها إليّ مباشرة، قالت:

- «أستاذ، تعرف أن والدي يقدّر موهبتك وشخصيتك؟»

- «لا شك في ذلك، لكن أين عرفت أنت تلك المحبة التي يكنها لي؟»

أضافت:

- «لي مصادري كما يقول الوالد، أجل قرأت ذلك في... حتى لا أحرق المراحل لن أقول لك أين؟»

تساءلت:

- «هل يعني كتب عني شيئًا؟

- «أرأيت؟ لم تتخلص بعد من فضول الروائي الذي يسكنك كما تدعي، أكيد كتب عنك».

ضحكت سامية. قليلة الشبه بوالدها، لعلها تشبه عبير. حدثتني عن مدينة طفولتها التي شغفت بها «البويرة» لولا الأم التي تصرّ على عدم العودة إليها ما فارقتها أبدًا.. منذ يومين كنت هنا أتمشى ولم أتوقف، تصور ذلك. جبتُ كل الأزقة التي افتقدتها، أزقة والدي، الجميلة، أرأيت أصلح أنا أيضًا للكتابة، أليس كذلك؟

قلت:

- «أكيد. حكاءة ماهرة أنت».

- «شكرًا سفيان على المجاملة اللطيفة».

كانت واثقة من القول الذي يغير من حياتي، إذ تواصل بشكل عفوي، لكنه مدروس بدقة، صحيح هي ما تزال في ريعان شبابها لكن ذلك لم يمنع قط تمكنها من صنع شرنقة محكمة، تركت كل

خيوط المتاهة وممرّاتها بين يديها. منذ البداية تريد أن تكون المبتدأ والمنتهى، كل الأوراق بين يديها. من تحديد موعد اللقاء ومكانه، إلى تلك الأوراق الكثيرة التي أمامها. فهمت أنها طالبة جامعية سنة ثالثة حقوق، تحدثت بشغف عن رغبتها في تحقيق طموحها بالتفوق في هذا الاختصاص. أضافت:

- «لا أدري لِمَ كل هذا الإصرار على كلية الحقوق، لكني مغرمة بالمحاماة. يا رب أحقق أمنية الوالدة».

قالتها بلهجة طفولية، وهي طفلة فعلًا عندما تتحدث عن أناها، عن أحلامها الصغيرة والدمع في مقلتيها. فتحت سامية محفظتها الجلدية، ثم حدقت في وجهي، قالت أخيرًا:

- «أتعرف يا أستاذ سفيان من بين الأشياء الثمينة التي وجدتها في مكتب والدي، ملفات خاصة جدًا جدًا، احتفظت بها والدتي طيلة سنوات رغم ما تحدثه من شرخ في كيانها، فهمت الآن سرّ تعاملها معها بشكل غير نهائي، غير حاسم، كمناورة تختلقها لتكرهه أكثر، كانت حريصة أن تراها يوميًا ولن تقرأها ربما من رهبة الموقف، من حجم الألم الذي تسببه أوراقه الخاصة، هي مفارقة عجيبة تسكنها أو تسكن الإنسان عادة عندما يفقد توازنه، فينتظر معجزة من الغيب تعدّل من مزاجه أو ترمم ما تهدم في داخله، وما عليه إلا الانتظار إلى آخر لحظة من العمر، كانت أمي هي تلك، التي تنتظر معجزة حقيقية تصحح لها بعض الضرر الذي لحقها جراء كل ما حصل في تلك الفترة وأنت

أدرى بملابساتها. لا أكذب عليك سيد سفيان، صعب جدًا أن أتنازل عن قطعة من روح والدي، صعب جدًا، ربما تفهمني، لكن بعد اطلاعي على بعض القصاصات، تخصّ مرضاه، وبعض ملاحظاته وتصويباته، الذي أثارني وهيجني ما كتبته أنت، تلك الرائعة «جزائر»، نعم ربما هي ليست صدفة أن أجد جملًا بعينها كتبها إليك شخصيًا وأن يضع والدي أوراقه وأوراقكم بين يديك، ربما لأهميتها، ربما لولعه الشخصي بأسلوبك، والفنتازيا التي تكتبها بإتقان.. ثم قراءتي ليومياتك أدهشتني حقيقة، لأشهر كنت في صراع حقيقيّ إلى أن ألهمني القدر أن أتصل بك، لم أجد رقمك بسهولة، البعض قال لي أنت بشكل ما انتهيت أدبيًا، تلك الرائعة قتلتك. لكن ذلك لم يمنعني من المجيء إليك. لأضع الملف كاملًا أمانة بين يديك، تصرف كما يجب أن تتصرف في إرث يخصكم جميعًا، أنت و»راس الكيلو» والرينقو [1] بالمناسبة لم أسألك عن «راس الكيلو» [2]، كيف هو؟ بي رغبة في رؤيته مجددًا...»

كنت مشدوهًا، ملتصقًا بالكرسي والملف الذي وضعته أمامي أمانة وتاريخًا طويلًا من المرض والوهم والصراع. لا أملك إجابات في واقع الأمر عن أسئلة حيرتنا كثيرًا، ولا القدرة على تجاوز محنتي الشخصية، من عطالة أخذت بعدًا دراماتيكيًا.. تفهمت سامية الصمت بعد وصول الملف إلى يدي، قالت برجاء وخجل:

1 الرينقو: لقب يلتصق عادة بالمجانين.

2 راس الكيلو: لقب استهزاء، مشهور في اللهجة الجزائرية.

- «معـذرة أسـتاذ إن وضعتـك في مـأزق حقيقـي، لكـن ليـس لي حـلٌ آخـر للخـروج مـن هـذه المتاهـة».

- «هو مأزق صحيح ومثير هذا مؤكد».

وقفت معتذرة من جديد قائلة:

«إلى اللقاء، أراك يومًا بألف خير».

(٢)

في يـوم آخـر، وفي مـكان آخـر.. لم تجـد سـامية مـا تقولـه في مكالمـة متوقعـة منهـا، خيـارات قليلـة جـدًا وفراغـات كثـيرة تؤرقهـا، تؤرقنـي أيضًـا بـلا شـك، الحـيرة جعلتهـا تتصـل لكنهـا تتراجـع ثـم تتصـل في اللحظـة الأخـيرة بخجـل بـيّن. قالـت: «تـرددت كثـيرًا في الاتصـال بـك.. أمـر الوالـدة أخـذ بعـدًا لا يليـق بامـرأة أربعينيـة ومدرسـة قديـرة، أجـل يـا أسـتاذ، الأمـر تجـاوزني فعـلًا مـن رغبـة ذاتيـة لأكتشـف شـخصية الوالـد مـن جديـد، إلى مسـألة تبـدو أكـثر تعقيـدًا وتشـوهًا في أرواحنـا الهشّـة، فالمزيـد مـن الانتظـار يقودنـا ولا ريـب إلى الانحـلال والتفسـخ والمسـخ. والـدتي ليسـت هـي، صدقنـي لم تعـد هـي.. أخجـل كثـيرًا للحديـث في أمـر يخـص حريـة والـدتي، في نفـس الوقـت يزعجنـي تحولهـا بهـذا الشـكل».

جـاءت سـامية في نهايـة الأسـبوع ربمـا لتضعنـي أمـام أمـر الواقـع، لم أشـجعها عـلى المجـيء لأني لم أكتـب شـيئًا يسـتحق عنـاء السـفر عـلى حافلـة مهترئـة، كيـف أشرح الأمـر لسـامية باعتبـاري منتهـي الصلاحيـة في الوقـت الراهـن؟ كيـف أشرح لهـا صعوبـة المأموريـة التـي وضعتنـي فيهـا؟ وصلـت بعـد سـاعة ونصـف، كان هاتفـي لا يتوقـف عـن الرنـين، منـذ انطلقـت مـن مدينـة «بـودواو» حيـث تسـكن رفقـة والدتهـا مـع جدهـا وهـي تقـول النقطـة التـي وصلـت إليهـا: «وصلـتُ إلى مدينـة الأخضريـة... الآن

في قادرية، في المحطة، قريبة من.. حادث بسيط عرقل سير المركبات، لا تقلق أستاذ...»

كأنها تستأنس بي، أو تخاف أن أغيّر من قرار الموعد. شخصيًا لا يعنيني اللقاء في واقع الأمر، إذ كنت فعلًا الشخص غير المناسب في رحلة ميؤوس منها. هذا الذي لم أقدر شرحه أو تفسيره لسامية، كان بودي فعل أي شيء لا من أجلها فقط، من أجلي أيضًا، هو في النهاية شفاء لي... لم أقدر على تجاوز عتبة الشّك والقلق.

التقينا في مقهى المحطة على أساس أنها تعود إلى مدينة بودواو بعد ساعة على الأرجح، لا تحمل جديدًا يخص عائلتها، باستثناء توتر علاقتها بوالدتها عبير، التي تريد الانتقام لكرامتها، أجل يا أستاذ أمي -بشكل ما- تعيش كمراهقة وتتصرف كمراهقة، أعرف تمامًا أنها تستهدفني لأنني ابنة هشام، وتتهمني بوقوفي في منطقة الظل، بحياد تام وهذا غير صحيح، كوني صغيرة، لم أستوعب بعد تلك الأحداث. ولأني ما زلت أعتقد أن والدي شخصية مهمة وبريئة ومعطاء. أمي... لا أريد المزيد من هذا الجرح.. ثم ضميري يؤنبني وعين والدي كل ليلة تحدق فيّ.

سكتت. فهمت ضمنيًا أنها تسألني أو بشكل ما تريدني أن أفصح عن مشروعي بعد شهرين من اعتكافي السلبي في «ب» دون أن أتقدم قيد أنملة. مؤلم ذاك الماضي الماثل في كل صفحة أقرأها عن قصد أو بغير قصد، تصوري أنت تقرئين لباية وهي تقول عني في غيابي طبعًا ولشخص غريب ليكن هو والدك الدخيل في غابة لا مدخل لها: «تلعن

يـوم قبولهـا الـزواج مـن مجنـون كسـفيان الـذي حـوّل يومياتهـا إلى جحيـم وقصاصـات وأفـكار سـخيفة» كنـت أقـرأ والألم يقطعنـي، تمامًـا كـما يقطعـك أنـت.

قلت:

- «هـل تتصوريـن وأنـا في وضعـي الصّحـيِّ هـذا، قـادر عـلى الفعـل الـذي يريحـك ويريحنـا جميعًـا وبالسرعـة التـي يتطلبهـا الموقـف؟ أنـت تتكلمـين عـن إرث ثقيـل، مـن الهواجـس والأسـئلة والكلـمات والأوراق التـي قاربـت الألـف باحتسـاب أنصـاف الصفحـات وتلـك التـي لعبت فيهـا تقنية الشـطب لعبتهـا، بالإضافـة إلى الفـوضى التـي كان عليهـا الملـف الضخـم، المهمـل في بعـض فصولـه، بـلا ترقيـم أو ترتيـب، ربمـا الطبيـب أصـلًا يفكـر في إعـادة البنـاء بعـد عودتـه مـن العيـادة أو البيـت، ربمـا لـه أكـثر مـن مخطـط في ذهنـه، قلـت لسـامية كل ذلـك المنـع الـذي سـبب لي الألم والإرهـاق. هـذا صحيـح.

-٢-

الكتاب الأسود

«من لا ذاكرة له فليصنع ذاكرة من الورق»

الحب في زمن الكوليرا... غابريال غارسيا مركيز

(١)

يجلب لنا الهاتف دائمًا المأساة فجرًا أو ليلًا. أكره الهاتف الذي يرن في هذه الأوقات مهما كانت الأسباب: «عليك بالاختفاء فورًا.. فورًا.. فورًا..» كان في صوتها طعم الحنظل وماء شجرة الدفلى، فورًا.. فورًا.. فورًا، ثم أغلقت الهاتف. فورًا، هل هي مزحة من مزح مريم؟ لم أستوعب جيدًا الجملة في الحين، فتسربت إليّ أسئلة موضوعية مباغتة في الحقيقة: لم أختفي؟ أي ذنب اقترفته؟ بدل الإجابة المستحيلة، رأيت شبح الرينڤو في تلك اللحظة الجحيمية قد وصل إلى مدخل العمارة عاريًا، وفي يده كل سكاكين الحارة.. فهمت سرّ مكالمتها الغريبة، لم أتوقع منها مكالمة أو عودتها في القريب العاجل بعدما طردتها من العيادة. بالتأكيد أحدهم وسوَس في أذنيْ الرينڤو أو بتلميح ما، أني الوغد الذي أغوى زوجته... اللعنة عليك وعلى اليوم الذي رأيتك فيه. حاولتُ الاتصال بمريم مجددًا، أعدتُ تشكيل الرقم مرات ومرات: ألو...ألو.. صدى كلماتها الثلاثة ترن في أرجاء الكون. هاتفها مغلق. في الوقت نفسه أحاول فتح باب عيادتي التي أبتْ، لم أجد ثقب الباب، هل هو بسبب الهلع أم هو العمى الذي فاجأني في صباح ديسمبري بارد جدًا، وبرد مدينة البويرة يقطع أوصالنا.. فورًا.. فورًا.. حركة يدي المرتعشة لم تساعدني على تجاوز المشكلة، قدراتي شبه معطلة للملمة كلّ الصّور والأحداث، ثم تركيبها قبل وصول قاتلي المدجّج بالسّلاح ومعه

كل أفـراد القبيلـة.. تبًـا. لم يكـن توتـري مصطنعًـا بـل حقيقـي في مشـهد رعـب واقعـي غير قابـل للتعديـل أو التحويـر أو التقصير، حشرجاتهـا تمزقني، آلات تفكيري شـبه مبعـثرة بين البحـث عـن ثقـب البـاب أو الاختبـاء. لكـن أيـن؟ أتسـاءل بصـوت مسـموع، هـو السـؤال الحقيقـي الوحيـد المتبقـي في جعبتـي.. لكـن لمـاذا كل هـذا العبـث والاختبـاء وراء سراب إن كان في النهايـة سـنموت بهـذا الشـكل أو بآخـر، برصاصـة تخـترق هيكلـك، أو بخنـق بشـع، بضربـة فـأس. كنـتُ قريبًـا مـن المـوت إذن، وبـاب عيـادتي مـا زال مغلقًـا كمتآمـر حقـير هـو الآخـر، اختلطـت علـيّ الأمـور في لحظـة فارقـة، مميتـة، لا تحتمـل خطـأ آخـر -لا قـدّر اللـه- قلـتُ بيـأس: أتماهـى أو أتبـدد في الهـواء المثقـل برائحـة الرصـاص والبـول ورائحـة البالوعـات التـي أشـمّها لأوّل مـرة، تنبعـث مـن أسـفل العـمارة، ومنظـر القمامـة عنـد الزاويـة المقابلـة، كأني أدخـل العـمارة لأول مـرّة... تبًـا.. كـم كنـت هشًـا ومرعوبًـا مـن جسـدي الملتصـق بالبـاب الحديـدي! الممرضـة زبيـدة لم تصـل بعـد.. هـي الأخـرى غلقـت هاتفهـا، دائمًـا تصـل في الوقـت المناسـب، تفتـح العيـادة وترتـب أمـوري في قاعـة الفحـص ثـم تنظّـف قاعتـيْ الانتظـار، تحـرص دائمًـا عـلى وضـع المجـلات والجرائـد لتحريـض الزبائـن عـلى القـراءة قبـل وصـول دورهـم.. يـا إلهـي.. فـورًا.. فـورًا. تصوروا حجـم الخـوف الـذي تسـببه جملـة مريـم القصـيرة لشـخص هـرم مسـالم مثـلي، لا يحمـل ضغينـة لأحـد، ولا يملـك حلـولًا لمشـكلة الهـرب أكـثر مـن انتظـاره عـلى سـلم العـمارة وأقـول لـه إن تكـرّم علـيّ بالاسـتماع للحظـات:

- «صديقـي، كيـف تصـدق أني عشـيق مريـم أو راودتهـا عـن نفسـها؟ طبعًـا هـذا مسـتحيل..»

لم أهضـم تأخـر زبيـدة غـير المـبرر، ثـم لمـاذا غلقـت هاتفهـا إن لم يكـن في الأمـر نيـة مبيتـة لتدعنـي بهـذا الشـكل عرضـة للقتـل البشـع؟ ألم تشـارك هـي في المؤامـرة؟ هـل كانـت تعـرف شـكوك الرينقـو مـن تصرفـات زوجتـه المنخرطـة في علاقـة مشـبوهة معـي؟ حتـى زبيـدة تشـكّك وتتأخـر عـلى غـير العـادة؟ لمـاذا تأخـرت كل هـذا الوقـت؟ يجيبنـي شـبحي، أقصـد الشـخص الـذي يشـبهني: ربمـا هـو قـدرك يـا سـيد هشـام المحـترم أن تواجـه قاتلـك وحيـدًا معـزولًا، في عتـمات العـمارة العتيقـة.. هـو قـدرك أن يرتبـط تاريخـك المهنـي بالضبـط في هـذه الشـقة بشـخص كالرينقـو المجنـون، جـاء في وقـت مـضى وأنـت كنـت مفلسًـا، كثـيرًا مـا شـكرته لأن بعـده جـاء الزبائـن، وبعـده صرت الطبيـب الـذي يقصـده المـرضى.. أنسـيت؟ بالتأكيـد لا، كيـف أنـسى ذلـك أو أنـسى هـذه اللحظـة الرهيبـة؟ فـورًا.. فـورًا..

نزلـت مـن العـمارة، محفظتـي كانـت حمـلًا ثقيـلًا في الواقـع أثنـاء شروعـي في تنفيـذ عمليـة الهـروب التاريخيـة. لم ألتفـت كالعـادة إلى عـش اللّقلـق، الغريـب في الأمـر لم أتلـق التّحيـة الصّباحيـة منـه كالعـادة، ربمـا شـمّ بطريقـة مـا أمـر الخيانـة، بـدا حزينًـا لأمـري، هـذا مؤكـد، بدليـل صمتـه، لم يهضـم أمـر المغـادرة عـلى الإطـلاق، تذكـرتُ حينهـا قصّـة التجربـة التـي قـام بهـا عـالم النفـس في أمـر الخيانـة المزعومـة عـلى اللقلـق مـن أنثـاه، فالأمـر لم يتقبلـه، فجمـع عـددًا مـن اللقالـق فقتلـوا الأنثـى الخائنـة شر قتلـة.

أتدحـرج في شـارع «ستراسـبورغ» عـن غـير هـدى، هروبًـا مـن عيـون المـارة أو معـارفي وأصدقـاء قـد ألتقـي بهـم وأنـا في حالـة مـوت محتملـة، بـدتْ لي كل الأشـباح التـي تتحـرك أمامـي وخلفـي تسـخر مـن العاشـق الهـارب، أتخيلهـم يعرفـون قصتـي بالتفصيـل المـملّ، قـد يلقـون القبـض علـيّ تسـهيلًا لأمـر المحاكمـة الشـعبية لطبيـب لم يحـترم أخلاقيـات المهنـة... يتسـلل شـبحي داخـل أحشـاء الحـيّ القديـم الغـارق في وحلـه، لم أنتبـه لـكل المطبّـات السـخيفة وأصـوات الباعـة الصغـار وحـالات اصطـدام كثـيرة، تعيقنـي عـن التّقـدم، في نفـس الوقـت هـي التـي تعيـدني إليّ ككهـل يخـترق تلـك السّـيول البشريـة هربًـا مـن قاتـلي المتوحـش، ربمـا أذهـب إليـه بقدمـيّ الثقيلتـين في هـذه الأزقـة التـي تضيـق بي، كأن المـارة يذكرونـني بمـا هـو أسـوأ، أنتبـه.. أتوقـف للعابـر كالسـهم لحسـن الحـظ ليـس هـو.. إلى هنـا لم أخـبر عبـير بالـذي يحصـل لي، ولم أشـأ إخبارهـا في أول وهلـة مـن هـروبي التاريخـي كأي جبـان اختـار الحـل السّـهل، لسـت أعلـم إن هـو الأسـهل أم الأصعـب، إلى أيـن؟ أقـول للآخـر المختفـي في داخـلي.. كنـت هشـامًا، الإنسـان لا الطبيـب الـذي ينصـح عـادةً مرضـاه بالوقـوف النّـد للنّـد أمـام الخـوف، للتصـدي لحـالات مشـابهة، كـم هـو سـهل أن تتحـدث مـع الآخريـن نظريًـا!

تبخـرتْ كل مشـاريعي اليوميـة ومواعيـدي، كلـما ابتعـدت أكـثر تبـدو الطريـق أطـول، كل المشـاهد التـي أراهـا أمامـي متسـارعة، غامضـة، يتدفـق منهـا دمـي. مشـاهد حمـراء، سـوداء. ألهـثُ في مسـار يـزداد تعقيـدًا كلـما باغتنـي السـؤال: إلى أيـن؟ كلّ الأزقـة التـي أعبرهـا وكلّ الزوايـا بـلا اسـتثناء،

شـكّكت في تضامنهـا معـي، إذ تبـدو متواطئـة مـع الرينقـو والقـدر، كل زقـاق ألجـه هاربًـا، خائفًـا، أتوقـع وجـود خصمـي فيـه، ينتظـرني بفـأس أو بخنجـر أو بمسـدس، كل مقهـى مـن مقاهـي المدينـة أتصورهـا محطتـي الأخـيرة، مشـهدي الأخـير، أشـكّ في كلّ شـبح أو هيـكل عظمـي يتحـرك أو يقـترب حيـث أنـا ورأسي بـين كتفـي أجـري ولسـت متأكـدًا بـأني أجـري بالفعـل..

اتصلـت بهـا مـرة أخـرى لأسـتوضح الأمـر، ثـم كيـف أسـلمت رجـليّ للريـح دون أن أسـألها: لمَ أختفـي؟ كيـف استسـهلت أمـر الهـروب مـع أني مـن عائلـة ثوريـة، أبي شـهيد وأعمامـي كلهـم انضمّـوا لثـورة التحريـر.. مـن يـدري لعلهـا تمـزح؟ لعلهـا تمتحـن شـجاعتي، حبـي، مـدى تماسـكي وتمسّـكي بهـا في حـالات غريبـة كهـذه؟ قـد تفعلهـا مريـم، مـاذا سـتخسره إن لعبـت لعبتهـا لتتأكـد مـن حبـي؟ صحيـح، سـأغضب قليـلًا، ثـم تـشرح بالتفصيـل المملّ كيـف فكـرت في مقلـب يغـذي علاقتنـا بفيتامـين الخـوف. هـي في آخـر الأمـر امـرأة... ألـو.. رقمهـا خـارج مجـال التغطيـة.. هـل وصـل إليهـا أولًا ثـم أنـا لاحقًـا؟ هـل أسـلمت روحهـا لبارئهـا؟

أتسـارع في خطـوي نحـو المجهـول، فعـلًا لا حـلّ لي سـوى الهـروب مـن عتمـة لأخـرى. «الخـوف يجـرّي الشـيوخ» كـما يقـول المثـل الجزائـري. صرت أكـره الشـارع الـذي أواني طيلـة أعـوام، في النهايـة هـو أسـوأ شـارع عرفتـه. وإذا بصـوت يخـترق كل أنـواع الأصـوات الرقيقـة والخشـنة والطويلـة.. كان يـردد اسـمي بتعـالٍ مزعـوم تفضحـه النـبرات السريعـة:

- «هشام... هشام..»

قـد يكـون هـو. لا... هـو.. لا.. هـو.. قلـت. وصلـتُ إلى آخـر الشـارع، كأنـه اختـار اللّحظـة المناسـبة المؤثـرة وبالضّبـط قـرب مكتـب الخطـوط الجويـة الجزائريـة، سـمعتُ صوتـه مجـددًا غـير يائـس مـن تجاهـلي لـه:

- «هشام.. هشام..»

اجتاحتنـي موجـة مـن الكراهيـة: كرهـت اسـمي، وظيفتـي، قصتـي، تلـك الأزقـة التـي فضحتنـي بـذاك الشّـكل السريـع في أول تمويـه قمـت بـه في حيـاتي العاديـة والهادئـة جـدًا والمريحـة. كرهـت المدينـة ومريـم التـي غـدرت بي في آخـر المطـاف، وزبيـدة.. كلهـم.. تبًـا.. تبًـا.. صعـب أن ألتفـتَ، صعـب أن أواصـل السّـير بينـما هـو خلفـي تمامًـا، لعلّـه يجـري ليلحـق بي؟ لـو كنـتُ شـجاعًا فقـط سـألتفت قبـل أن يجهـز عـليّ، ربمـا سأشـتمُه لأني جعلـتُ منـه شـخصًا آخـر.. تبًـا عـلى اليـوم الـذي فتحـت لـه بـاب عيـادتي.. تبًـا يـا الرينقـو المجنـون، الحقـير، الـذي عذّبنـي هـذا الصبـاح.. توقفـتُ كأيّ متحـضّر ومتعلّـم، دون أي التفـات.. برهـة، كـم كانـت ثقيلـة ومرعبـة، مليئـة بضجيـج سـنوات الحصـاد والكـدّ في شريـط سريـع، رأيـتُ فيـه الجميـع، أمـي الرّاحلـة، سـهى، عبـير، سـامية، كفنـي بـين يـديّ. كنـت أسـمع خطّـوه السّريـع يقـترب مـن هيـكلي. تسـلل البيـاض إلى عينـيّ. لم أعـد قـادرًا عـلى رؤيـة الوجـوه والهيـاكل المـارّة أمامـي، مـن خلفـي، أخـيرًا وصـل. لا تعنينـي حيـاتي بقـدر مـا يعنينـي حـزن عبـير ويُتْـم سـامية، لا لأني مقتـول، لا لأن مجنونًـا فتـك بي في لحظـة أخطـأت فيهـا التقديـر، سـتحزن لأني خُنتهـا.. رغبـتُ في البـكاء قبـل الحشرجـة الأخـيرة، لـو يمهلنـي الرينقـو لحظـات. سـأبكي مـن

أجل حزن عبير الذي سيمتد العمر كله.. العمر كله، ستراني خائنًا، كل خيانة ستذكرها بنذل حقير هو أنا.. لمسني بيده أخيرًا في كتفي:

«هشام.. واش بيك..»

أفقت من غيبوبتي.. أسمعه مجددًا يقول:

- «واش بيك هشام..»

- «لا لا شيء، لا بأس ربما هي الحمى.. الحمد لله..»

صوته الجهوري لم يكن صوته، لم تكذب أذني عندما أرسلت إشارة إلى دماغي بأن القادم هو «راس الكيلو»، فتحتُ عينيّ بسرعة لأصدق أذنيّ ودماغي، كان هو بالفعل، الذي بدّد مخاوفي بكلماته الرّجراجة، أحببته في تلك اللحظة، ولن أناديه براس الكيلو مرة أخرى، هو «عمي بشير» ابتداء من هذه اللحظة التاريخية. فرحت كثيرًا عندما رأيته، كأني نجوت نهائيًا، أليس هو رجل أمن خبر الحياة ومثل هذه الحالات الصّعبة المعقدة؟ ثم لا أصدق أني سأجد في أول صباح ديسمبري بارد منقذ مثل عمي بشير، هي صدفة عجيبة. استرجعت أنفاسي بالتدريج، تمشينا ببطء، يمطرني بأسئلته، لماذا لم تفتح عيادتك؟ هل أنت مريض؟ كنت أفكر في طريقة يسيرة ليتفهم وضعي الغامض، ثم كيف أحدثه عن شخص مجنون لا يعرفه، لم يسبق لي أن حدثته عن مرضاي خارج عيادتي. لا مفر من قول الحقيقة.

- «عمي بشير، أنا في خطر، أحد مرضاي يهددني، المشكلة لا أعرف

أكثر من هذا، لا أعرف أين هو؟ لا أعرف التفاصيل التي جعلته يكرهني بهذا الشكل ليصل به الأمر إلى حدّ تصفيتي؟ فقط أنا مهدد.. زوجته أخبرتني قبل قليل بالخطر المحدق بي».

لم يقل شيئًا كالسؤال المحرج المنتظر منه عن سبب تهديده لي، وهو يعرف علاقتي الجيدة مع كل مرضاي، اكتفى بالقول: «هيا نتحرك.. ثم نرى ما يجب فعله».

رافقته حيث ركن سيارته في الجوار، دون أن ينبس بكلمة. ولا أملك حق التساؤل حينها إلى أين يأخذني؟ وهل مهم ذلك أمام هول الذي سيقع لولا ظهوره المبكر أمام مكتب الخطوط الجوية؟ الأصح، كنت مطمئنا جدًا، على الأقل عندما يظهر قاتلي في مكان ما، ثمّة شخص يعرفني يقوي عزيمتي للوقوف أمامه بشجاعة. ركبنا سيارته من نوع بيجو ٢٠٦ البيضاء، انطلق نحو الحيّ الشرقي للمدينة، شغل شريط موسيقي على ما أعتقد للموسيقار الكبير «عمر خيرت» في إبداعاته القوية الرائعة آه، كان للمقطوعة «ليلة القبض على فاطمة» وقع خاص، في صمتي كنت أختار الكلمات المناسبة التي تترجم بالضبط ما كنت أعانيه حقيقة، كنت أهيم في الجمال الموسيقي بينما الرينقو يتعقب خطواتي السريعة. في انعطافنا الأخير قال بثقة:

- «معي لا تحزن يا رجل» ضحك، أول مرة أراه يضحك، بدا رجل أمن حقيقة خبر المناورات والحقول الملغمة. سألني مجددًا:

- «لم تذكر لي الشّخص الذي هدّدك؟»

- «لا أظنك تعرفه، يلقب بالرينقو».

- «هل نسيت أني رجل أمن؟ طبعًا أعرفه، لا تقلق يا رجل».

اتصلتُ أخيرًا بعبير، متلعثمًا، لم أجد كلماتي التي كنت أقولها لها، في السابق عندما أخبرها بأني سأغيب لساعة أو لساعتين مثلًا كنت أبادر بالاتصال أولًا، أبدأ قصيدتي: لا تقلقي حبيبتي. أين أنت يا روحي؟ سلامي لسامية حبي.. إلى غيرها من الجمل الشعرية التي عادة تكون مدخلًا رسميًا إلى جنّتها في اللّيل. بالطّبع ستجهّز نفسها.. لكن اليوم الأمر اختلف تمامًا، وعادي جدًا أن تفقد لغتك وقاموسك وصوتك وشعريتك المزعومة، تبدو على حقيقتك: عاريًا، خائفًا، فقيرًا.

- «عبير... لا أعرف بالضبط كيف أقول، لكني مجبر على الاختفاء لأيام أو أشهر.. أحد مرضاي، يهددني، تعرفين المجانين عندما يقررون سيفعلون.. لا تخافي.. أنا بخير الآن».

تقول عبير وهي غير مصدقة كلّ الذي يحدث:

- «من هذا المجنون الذي يهددك؟ هل بلّغت الشرطة؟»

- «بالتأكيد عبير سأتصل بالشرطة بعد حين، لكن لا حلّ لي الآن سوى التّخفّي لأيام، إن شئت اذهبي إلى بيت والدك، أخاف أن يصل إليك وسامية».

صمتت.

- «ألو..»

- «نعم.. سوف أرى، لكن عليك بإبلاغ الشرطة فورًا، أشك أنك ستعلم الشرطة؟

- «لا عليك، اهتم بأمرك.. باي..»

صمتها يقول أنها شعرتْ بخيانتي، للنساء حاسّة غريبة في كشف الخيانة.. ربما اليوم الذي وقعت في المحظور رفقة مريم، شعرت بغبني كمراهق استهوته المناطق الدافئة البعيدة وانثناءات الجسد الرشيق كسمكة تتفنن في إغراءات متواصلة أو كالسيرانة التي أغوت الصياد فأغرقته، لعلها بدأت تراودها الشكوك من ذاك اليوم الأسود في مسلسل خياناتي الصغيرة وأنا أنساق وراء اليد التي سحبتني إلى اليمّ. هل انخرطت عبير في بكاء صامت تلك الليلة؟ هل شمّت ملابسي، قميصي الأزرق المخطط، للأمانة يومها ارتديت البذلة التي تعشقها مريم، وخاصة ذاك القميص.. أتذكر أن عبير تلك الليلة تحديدًا كانت قليلة الكلام، مشتتة على غير العادة، كنت حذرًا جدًا من استيقاظ جنونها، هربت من عينيها العسليتين، بالغت في الجلوس مطولًا أمام المكتب أكتب تفاهات وخطوطًا. مشكلة كبيرة أن تخونك الكلمات الواجب قولها في لحظة ضعف رهيبة لا مثيل لها وهي في الطرف الآخر من المدينة، بالتأكيد دخلت قاعة الدرس، هي أمام تلاميذها الآن، لا تعي ما تعمله، هل تواصل أم تغادر المدرسة؟ أو تهرب مثلي؟ أو تتعقب خطواتي مستعملة حاستها وحدسها وقلبها. قد تفعلها ربما تتصل بالشرطة.

تمنيت لو كنت في أعلى قمة في جبل جرجرة.. لأصرخ...أصرخ.. إلى أن

تتمزق حبالي الصوتية.. كم كنت نذلًا! كم كنت.. كنت... آه.. آه... أه.. آه.. في السابق، كلما اختنقت ألجأ إلى والدتي في قرية ريفية، نسيتها الآن بسبب رحيل أمي بمرض الزهايمر، يكفي دخولي البيت وأراها فتنزاح متاعبي دفعة واحدة، هي تتفهم زلاتي ومتاعبي. من أين لها كل ذلك الثقل والصبر، فتمتص قلقي بسرعة، أتناسى همومي، تجدني في ساعة قادمة أنام كالطفل.

أوقف السيارة داخل باحة مسيجة، وثلاث عمارات تقابلك، طيلة سنوات لم أدخل الحي الشرقي، يقولون إنه حي المحظوظين جدًا والميسورين، الذين لهم القدرة على شراء شقة في حيّ كهذا. أمرني عمي بشير قائلًا:

- «انزل».

نزلت. ترجلنا صوب باب العمارةb، ثم الطابق الثالث رقم ٦.. فتح الباب الحديدي أولًا ثم الباب الخشبي، دخلت برجلي اليمنى، لا أومن بهذه الطقوس لكني مجبر على ممارستها لعلها تنقذني، تنفست الصعداء في الرّواق الملوّن، درت يمينًا جهة الصّالون الصّغير، الغارق في الظلمة، قال البشير:

- «مرحبًا سيد هشام، البيت بيتك..»

بدأ في فتح الستائر، ثم رفع الأغطية على الأرائك الجلدية التي تزين عادة صالونات رجال مهمين، بقماش مزركش يميل لونه إلى البنيّ.

طاولة صغيرة تتوسط الأرائك، ومزهرية في عالم كئيب بألوانه المنفرة للأسوياء، شخصيًا لا أعشق اللّون البني ممزوجًا بالرمادي داخل الغرف الصّغيرة كهذه الشّقة، كنت مغرمًا بالأزرق أو البنفسجي، على ما يبدو اختلافي مع صديقي واضح جدًا، قلت: لا بأس، خزانة كبيرة على الجدار الموازي للباب، مليئة بالأواني والأطقم من الكؤوس والفناجين، وهدايا فاخرة أو تبدو فاخرة، ثم صورة كبيرة لبشير بزيه العسكري عندما رُقي إلى رتبة مساعد أول. وصورة ثانية رفقة زوجته «هند» دائمًا بلباسه العسكري، يحمل مسدسًا يصوبه إلى رأسها وهي تبالغ في ضحكها أمام العدسة. هل كان ذلك صحيحًا؟

هو أول صباح غريب مليء بمغامرات طبيب عاشق ميت لا محالة. وضعتُ محفظتي على الطاولة، أحسست ببرودة في القلب والذاكرة، تيار بارد يتسرب إلى دواخلي، ارتميت على كنبة قريبة من النّافذة، بينما عمي بشير منهمك في إشعال المدفأة.. صوتها يشبه طعم الحنظل، صوتها مذهل في شوقها، ومرعب في إنذارها لي.. فورًا.. فورًا.. اتصلتُ بها مجددًا على أمل الرّد، على أمل أن تقول إنها كانت تمزح يا «هشامي العزيز» لو تقولها.. لو... ما يزال رقمها «مغلق أو خارج مجال التغطية» طالما سمعت نفس الجملة أختنق أو أشعر بسكين يخترق رقبتي.

يعود عمي بشير إليّ، يجلس قبالتي لا يخفي ابتسامة وتساؤلًا في نفس الوقت، أعرف بحكم اختصاصي أنه يريد المزيد من تفاصيل القصّة، لماذا هددك؟ كيف هددك؟ بالأحرى كيف عرفت أن المريض

الـذي لا حـول ولا قـوة لـه يهـددك؟ الرينقـو؟ ذاك الـذي يخـاف مـن ظلـه بإمكانـه قتـل رجـل ضخـم هـو أنـت؟

تتصـل عبـير ثانيـة، اكتفيـت بالقـول: «نعـم.. لا بـأس، لا تقلقـي» أقفلـت الخـط، خجـولًا مـن عريـي، خجـولًا مـن نـبرة صوتهـا المتلعثـم، الحنـون، كأن يدهـا وصلـت للتـو لتضعهـا عـلى فـروة رأسي. آه... وضعـت الهاتـف أمامـي بينـما صديقـي يفكـر بصمـت، في صمتـه أسـئلة حرجـة للغايـة. ينتظـر منـي أن أكـون شـجاعًا لأسرد الحقيقـة لا غـير.. بالتأكيـد إجابـاتي لـن تقنعـه وغـير مـبررة. في الواقـع غـير مسـتعد تمامًـا في تلـك الزوبعـة مـن التّيـه لـسرد بالتفصيـل ووصـف لحظـة وضـع يـدي في جرحهـا الغائـر -الأصـح- سـحبتُ يـدي نحـو غابتهـا المسـيّجة الحارقـة، لهيبهـا حـرق أصابعـي ثـم توثبـتْ مـن سريـر الفحـص كاللبـؤة لـن تفـرط في فريسـتها بسـهولة. وقعـتُ. عفـوًا لم أقـع، توتـري منعنـي مـن ذلـك، هـي يئسـت مـن محـاولاتي في اسـتبعاد صـورة عبـير وسـهى مـن المشـهد، هـدأت والغضـب جـليّ في حركاتهـا وهـي تضـع حقيبتهـا اليدويـة عـلى كتفهـا الأيـسر..

اكتفيـت قائـلًا لعمـي بشـير بـألم... ولا أملـك حينهـا سـوى الألم ولغـة تسـتعطف الكهـل لحميـاتي أو إيجـاد حـل لمعضلـة تشـبه الطوفـان وهـو يجـرف الصالـح والطالـح:

- «بالتأكيـد الرينقـو لم يتنـاول أدويتـه، ثـم أحدهـم وسـوس في رأسـه بـأني عشـيق زوجتـه مريـم، لا أصـدق كيـف حـدث هـذا أو مـن المجـرم الحقـير الـذي مـلأ رأسـه بأكاذيـب تدمـره وتدمـرني، هـي مؤامـرة حقـيرة

عمـي بشـير..»

- «خـذ راحتـك، حتـمًا سـأجد حـلًا، لا تقلـق.. لـن يصـل إليـك مـا دام عمـك بشـير عـلى قيـد الحيـاة».

كـم كانـت كلماتـه سـاحرة! كأنـه الطبيـب وأنـا المريـض، أو يحـاول إبـراز الجانـب الإنسـاني فيـه والهـشّ، رغـم كل مـا عاشـه مـن حكايـات، أبطالهـا مجرمـون حقيقيـون وعصابـات ودسـائس طالتـه هـو شـخصيًا. أردف قائـلًا:

- «لا أعـرف إن هـو الوقـت المناسـب لأقـول لـك يـا صديقـي أني كذبـت عليـك قبـل أيـام، أرجـوك أن تسـامحني، كتـم شـهادة حـق هـي خيانـة يـا هشـام، أعـرف الجانـب المهـم في روايـة «حرائـر» لا تقلـق.. ليلـة أمـس فكرت مليًّـا في الموضـوع، أوكي مـرة أخـرى سـأحكي التفاصيـل.. إن لم يفـت الوقـت».

- «لا.. لم يفـت الوقـت، ألا تـرى ربمـا عشـت هـذه السـاعات الإضافيـة لأسـمع الجانـب الخفـي مـن الروايـة، شـكرًا عمـي بشـير..»

(٢)

«ألـو.. ألـو.. سـعيدة باختفائـك يـا صديقـي..» توثبتُ مـن مكتبـي. إذْ كان انتظـار مكالمـة منهـا في تلـك الغربـة العبثيـة ضربًـا مـن المسـتحيل. فتحـتُ الخـط بلهفـة لا نظـير لهـا: «ألـو..» يعنـي أنهـا تعـرف مسـاري بعـد مكالمتهـا الأولى، يعنـي هنـاك عيـون أخـرى تراقبنـي بـكل وقاحـة، مـن يـا تـرى؟ صوتهـا واهـن، تسـكنه الرّجفـة والاختنـاق، هـل أحدهـم أطبـق يديـه عـلى عنقهـا الطويـل؟ ليؤكـد حقيقـة لا مفـر منهـا، فضيحـة سـتهز عـرشي قريبًـا، وأنـا بعيـد عـن شـارع «ستراسـبوغ» وعـن عيـادتي وأسرتي. أراقـب حركـة العـالم مـن شرفـة الشّـقة ذات الغـرف الثـلاث، علاقتـي بالعـالم الخارجـي اختصرتهـا في اتصـالات زبيـدة القليلـة جـدًا، المتوتـرة بمـا حـدث لي، هـي الأخـرى لا تسـتبعد إيذاءهـا. أقـضي سـاعات قليلـة مـع «راس الكيلـو»، عفـوًا عمـي بشـير الـذي يتكـرم بمجالسـتي صباحًـا، يهـدئ مـن روعـي ويقلـل مـن تهديـد الرينقـو غـير الجـدّي، هـذا ضروري في مثـل حالتـي غـير الطبيعيـة. ثـم يعـرج بي إلى ميادينـه وتاريخـه الشّـخصي المـليء رعبًـا، يومياتـه داخـل ثكنـة ايـن عمـل دركيـا وفي المناطـق الصّعبـة، في الظـروف غـير العاديـة. أدعُـه يثرثـر عن أخطائـه -يقـول- الكثـيرة وربمـا تجاوزاتـه التـي تفرضهـا المهنـة كرجـل أمـن نزيـه يقـوم بواجبـه طبقًـا للتعليـمات العسـكرية التـي يتلقّاهـا مـن قادتـه.

- «أنـت تـدرك سـيد هشـام مهامنـا الصّعبـة التـي نؤديهـا في غيـاب

إمكانـات وفي ظـلّ تنامـي الجريمـة بـكل أنواعهـا، أجـل ممكـن تجـاوزتُ قليـلًا، أقـول ممكـن، لكنـي كنـت نزيهًـا في نهايـة الأمـر. الـشّيء الوحيـد الـذي اسـتفدت منـه في هـذه المدينـة وربمـا بغـير وجـه حـق، هـذه الشُّـقة التـي تأويـك الآن، حينهـا الحصـول عـلى شـقة لا يسـتوجب كل هـذا الهـلاك المدمـر للمواطنـين، إيـه، لم أطلبهـا قـط، اتصـل بي رئيـس البلديـة آنـذاك واقـترح عـليّ الشّـقة. هـل أرفضهـا؟ وأنـا كنـت في حاجـة فعـلًا لشـقة في مدينـة يقولـون إنهـا سـتكون مـن أهـم المـدن الداخليـة بعـد عـشر سـنوات مـن الآن، هـذا سـنة ١٩٨٦ طبعًـا لم يصـدق أحـد بتلـك الشـعارات، هـل تعـرف الآن يـا صديقـي ثمـن المـتر المربـع مـن العقـار هنـا؟ قـد لا تصـدق، المهـم، وافقـت. شيء آخـر، هـل أخطـأتُ عندمـا قمعـتُ مظاهـرات الخامـس أكتوبـر سـنة ١٩٨٨؟ بالتأكيـد لا، لأني نفـذت تعليـمات رؤسـائي، لم أكـن في الواجهـة، لكنـي العـين التـي توجـه القـادة الميدانيـين في أمـر الاعتقـالات والقيـام بعمليـة التنظيـف والعمـل الاسـتباقي لأي تـصرف قـد يـضرُّ بمصالـح البلـد. يومًـا سـأكتب مذكـراتي يـا صديقـي، لا أخجـل مـن عمـلي بوصفـي رجـل أمـن حريـص عـلى أمـن البلـد. سـأفعل».

هـي ليليـاتي الكئيبـة التـي قـررت فيهـا التّحـدث إلى شـخصي بصراحـة، هـي المـرة الأولى التـي أجـد نفـسي في وضـع كهـذا، منـع عنـي الخـروج، كأي سـجين في قبـو انفـرادي، يزيـد مـن عذابـاتي، لا أذكـر اسـم الكاتـب الجزائـري الـذي سـجنه والـده في مكتبـة المنـزل فقـرأ ألـف ليلـة وليلـة، ربمـا تلـك العزلـة جعلتـه يكتـب أجمـل رواياتـه لاحقًـا، لا أذكـر مـن يكـون؟ أجلـس قبالـة هشـام آخـر، أكتشـف خسـارتي ونجاحـاتي، سـوء الطالـع الـذي يفاجئنـي في كل دورة والنّحـس الـذي يرافقنـي أينـما ذهبـتُ. هـي ليليـاتي البـاردة جـدًا، كشـخص شـبه منبـوذ يترقـب موتـه، ينتظـر قاتلـه بـين لحظـة وأخـرى، وأنـت تواجـه نفسـك بعريـك وقبحـك وربمـا نذالتـك، وأنـت تجـري خلـف سراب. النجـاة مـن شرك مريـم والرينقـو تبـدو مسـتحيلة.

تتلبسـني قصـة سـفيان عبـد الجليـل بـكل غموضهـا ونزقـه المتعمـد ونرجسـيته المتعاليـة، هأنـذا هـو، أكونـه بعـد مكالمـة مريـم، الفـارق الوحيـد هـو، قاتـلي يتربـص بي فعـلًا، في أي مـكان بينـما سـفيان عبـد الجليـل يتوهـم قتلـة يتعايشـون معـه في غرفتـه، كل ليلـة يراهـم مـلء العـين في ظلمـة دامسـة، يعيشـون فسـادًا في غرفتـه، في أوراقـه، يتفننـون في تعذيبـه. طبعًـا تنكـر بايـة بشـدّة هـذه القصّـة المتخيّلـة، فتجعلـه يغضـب ويشـتمها، إذ تؤكـد بـإصرار أنهـا لم تعـش ولا ليلـة مـن هـذا الوهـم الـذي يتحـدث عنـه سـفيان.. إيـه، كان ينـام إلى جانبـي، يشـخر، يتكـور، في الهزيـع الأخـير مـن الليـل أسـمعه يسـتيقظ، يخـرج إلى دورة الميـاه، يفـرغ مثانتـه ثـمّ يعـود إلى السّريـر يشـعل سـيجارته التاسـعة، ربمـا العـاشرة، كنـت أكـره التدخـين في

الغرفة، لكنه يدخن ربما ليقلقني، ليجعلني متوترة، تتوقع كلّ شيء من سفيان، ممكن يوقظني في الهزيع الأخير من الليل يسألني لِمَ بكيتُ في ليلة زفافي.. ربما مرة وحيدة سمعته يبكي أو يتصنع بكاءه ليستعطفني لأني أهملته، أجبرني على إهماله.

إني هاهنا بالصدفة أكتب يومياتهم، لا تعنيني حياتي بعدما وصل الأمر إلى حدّ القتل، ولا تهمني حكايتي الشّخصية بقدر ما تهمني هذه التسجيلات الكثيرة والكراسات المليئة بملاحظات ومواعيد ورؤوس أقلام لقصص وحكايات وعقد ومناوشات واعترافات ساخنة، أسجلها على الفور وهي تخرج حارة من أفواههم العطشى للحب والحرية والقبل والحلوى.. كانت تنطق بحرائقها منذ وطأت قدماي العيادة التي صنعت اسمي وتاريخي، فعلًا لا يعنيني هذا التّاريخ الشّخصي المليء فرحًا وتعاسة بقدر ما يهمني هذا الإرث المهم من تاريخ مرضاي الذين أعتز بصداقتهم ومشاكلهم الصّغيرة التي يسببونها بين الحين والآخر. هذا الإرث الكبير المتمثل في التسجيلات الصوتية حين أمدّ يدي نحو الآلة وهي تسجل الآهات والكلمات والحشرجات، حكايات أستجمعها يوميًا من أفواه صانعيها، ومجانين فقدوا البوصلة ومهمشين سحقتهم الحياة سحقًا فظيعًا، حكايات سوداء كلما اقتربت من عُقدها وفكّ طلاسيمها تزداد تعقيدًا.. أجد العزاء في الكتابات الأنيقة السّاحرة التي يخصّني بها الكاتب سفيان عبد الجليل، على قلّتها وغموضها، تبقى بلسمًا حقيقيًا، فكان يزودني بين الحين والآخر بقصص نشرها قبل تعرضه للانهيار

كقصة الأدلويز، وقصّة الضيف الساحر، وغيرهما. عادة أنصح مرضاي بالكتابة، بالرسم، بالعزف، لا تهم طريقة التعبير أو الوسيلة بقدر ما تهم الجرأة في حدّ ذاتها على فعل البوح ومواجهة الذات والآخرين أيضًا.. الكتابة في النهاية هي وسيلة للشّفاء، وسيلة لتدمير فوبيا الخوف والشك والخجل والانطواء، هذا ما قرأته طيلة مساري الدراسيّ. قلت لهم مرارًا جربوا وسترون النتيجة.

بصفتي كاتبًا لهذه الحكايات المفتوحة، أدّعي لأولّ مرة أني أعرف الكثير من التفاصيل غير المسجلة في الكناشات الكثيرة، الآن، تطفو من أعماقي.. أعرف التفاصيل المهمة الخاصة بحياة «باية» تلك الإنسانة الرقيقة البكاءة الصامتة في أشدّ المواقف تعقيدًا وعنفًا، يحيط بها من كل جانب أو يواجهها سفيان عبد الجليل بأسئلته الحارقة، الشّكاكة، في تصرفاتها وتخيلاتها التي ترعبه كلما خلت بنفسها في غرفتها، على ذكر هذا التباهي بقوة ذاكرتي وانغماسي الكلي في جمع الكم الهائل من المعلومات التي تتعلق بشخصيات واقعية بإمكاني أيضًا الحديث وبجدارة عن الكاتب الشّبح الذي حرر رواية «جزائر» (إن كان ذلك صحيحًا) والأسباب الحقيقية التي جعلته يسلك طريق التحوير والشّطب المتعمد وتجميل القبيح أحيانًا وتقبيح الجميل في أحيان أخرى، في اعتقادي هو تحامل وتدخل في سياق التبييض المتعمد من طرف من؟ على ذكر تلك الرواية السيئة السمعة تلك التي قرأتموها أو سمعتم عنها باعتبارها الأكثر مبيعًا في جزائر منتصف التسعينيات من القرن الماضي، باعتبارها

أيضًا أيقونة الأدب الجزائري بسبب تعريتها للواقع الملتبس بكثير من المشاهد الدموية بداية من ثالث من أكتوبر ١٩٨٨، كان لي الشرف في لقاء كاتبها المفترض الذي تقدمه وزارة الثقافة منقذًا لفن الرواية لكنها خسرت الرهان بمرضه المفاجئ. التقيت به أو بالأحرى لجأ إليّ في أسوأ مرحلة بلغها كمجنون رسمي رغم الشّهرة والانتشار الذي حققه، فلجأ إلى أسلوب التنكر أو نكران حقيقة كتابته للرواية التي سببت له التّشظي في ذاكرته وقدراته العقلية. ثم هذا أغرب حالة عشتها كطبيب وقارئ، لم يسبق لي أن قرأت في حياتي أن كاتبًا يتبرأ من عمله الإبداعي، ويرفضه بشدّة غير معقولة.. هذا نادر الحدوث بل يستحيل، أجادله في الأمر في كذا جلسة ولو أني أحاول بتلك الاستفزازات لفهم هذا الانقلاب الجذري في مسار الكاتب الشاب الواعد. أستبعد سيد سفيان أن تشوّه روايتك وتكتب بأسلوب أرقى وأنقى ثم تنشر باسمك الحقيقي، أنا معك في قضية السرقات الأدبية الشهيرة، نعم تُسرق النصوص لكنها تنشر باسم سارقها. مستحيل صديقي سفيان هذا الذي أسمعه منك؟ إذن ليس جديدًا أن أعرف هذه المتون المتشابكة لشخصيات واقعية بالفعل، لم تذكرها الرواية المذكورة أعلاه لأسباب مختلفة أو ربما تجنبًا لسوء الفهم كما أحب سفيان أو الكاتب الشبح (القضية غير محسومة إلى حد هذه اللّحظة والشّك قائم عندي وعند النقاد الذين تطرقوا باستحياء للموضوع في فترات سابقة) أقصد كل الشخصيات التي اختارتني طواعية وقصدت عيادتي صباحًا ومساءً، كنت الطبيب الوحيد المختص في مدينة تكبر وتمتد في الجهات الأربع اسمها «البويرة».

عيـادتي التـي أفتخـر بهـا كثـيراً أمـام الزمـلاء بحكـم تموقعهـا في أهـم شـارع وأخـذت حيـزًا مكانيًـا رائعًـا، في شـارع «ستراسـبورغ» قبالـة حديقـة الأسـود الثلاثـة، بشرفـة مثاليـة تطـل عـلى الشـارع الممتـد وقاعـة الريـش البديعـة، في مشـهد جمـالي خـلاب. هـذا مـا جعلهـا تسـتقطب لاحقًـا: مريـم، الرينقـو، سـفيان، بايـة، راس الكيلـو -عفـوًا- عمـي بشـير الكريـم.. وغيرهـم، أقصـد الجميـع بمـن فيهـم أنـا في هـذا الكـولاج السـردي المريـع المتواصـل كشـلال متدفـق قبـل نحـري، أو لا أعـرف إلى الآن بـأي طريقـة أقتـل، تجـدني متأملًـا، ينهشـني مـن الداخـل إلى الخـارج، أسـكبه حروفًـا وكلـمات وجمـلًا لعـلي أرسـل كل هـذا الفيـض إلى صديقـي، مـن يـدري؟ (لم يذكـر صديقـه، أنـا؟ في تقديـري هـو أنـا) أتفهـم الآن حرقـة سـفيان عبـد الجليـل في محاولاته الكثـيرة لتبرئـة سـاحته مـن التهـم الموجهـة إليـه كمسـتغل ليوميـات معارفـه وأقاربـه. أتفهـم إصراره في البحـث عـن دليـل واحـد يثبـت براءتـه إلى حـدّ هـذه اللحظـة. سـنوات طويلـة وهـو في رحلـة بحـث عـن مسـودة «حرائـر» بـدل «جزائـر».

كنـت هاهنـاك في شـارع «ستراسـبورغ» التاريخـي، الممتـد مـن طـرف المدينـة جنوبًـا إلى شـمالها، بحوانيتـه العتيقـة، وشرفاتـه البسـيطة، كان إلى وقـت قريـب، طريقًـا وطنيًـا عـبره زعـماء وثـوار، منهـم الرئيـس الراحـل «هـواري بومديـن» في بدايـة السـبعينيات ووزراء وكبـار المثقفـين الجزائريـين، فالشـارع يمتـاز أيضًـا بمقهـى المولوديـة الـذي افتتـح في الأربعينيـات مـن القـرن العشريـن، وفنـدق وحيـد يعـرف باسـم «النجمـة» بالتأكيـد ليـس لـه

علاقة بالرواية العظيمة التي كتبها كاتب ياسين في أوائل الخمسينيات «نجمة». صحيح لم أسأل في الموضوع، لكن في الغالب للاسم علاقة بالتصنيف الذي اعتمدته وزارة السياحة والفندقة، بجواره حانة «باريس الصغيرة» التي يقصدها العمال والحرفيون، وصغار الموظفين، عشاق يجيؤون لذرف دموع ساخنة على أنغام موسيقى الشعبي وأغاني «جاك بريل» التي تصدح من الصالات والمقاهي المجاورة للشارع، قبل أن تهجره الأقدام والوجوه فيشمله النسيان بعد إنجاز المحوّل في اتجاه شرق -غرب، خارج المدينة.

اخترت الشّارع المميز جدًا، لأبدأ حياتي المهنية طبيبًا نفسانيًا، ليس اختيارًا عشوائيًا بل لما له من جمالية وشعرية ربما لأن في داخلي لوثة الشعر قبل أن تتلفها الدراسات العليا وعلم النفس، واهتمامات سياسية وثقافية، لم تترك لي الوقت الكافي لقراءة أمل دنقل والجواهري وأحمد مطر ونزار قباني. وجدت الشقة من ثلاث غرف في الطابق الأول، التي تشكلني من جديد بكل مساوئ المرحلة ومحاسنها، لم يكن سهلًا الحصول على شقة عند الزاوية، بواجهتين إحداهما تطل على الحديقة العامة/العالم، القاع والأخرى على حي «الشاطو» المعروف بعراقة أهله وبساطتهم. عندما أجلس على الكرسي الخشبي الهزاز، في انتظار الزبائن، تسرقني مشاهد القاع، مشاهد البؤس اليومي الذي تراه ملء العينين وهو يتجول بين المارة أو عندما يتحول المارة أنفسهم ببرانيسهم الوبرية إلى أشباح في رحلة بحث أو جري أو تسكع أو ترقب. يهرولون في كل

الاتجاهات مع حرص شديد على جيوبهم من أنامل لصوص ينتشرون أمام الطوابير الكثيرة في كل زحام بشري لاقتناء مواد غذائية نادرة.

كنت كعلامة مميزة داخل شقة بطرازها المعماري الأوربي، على غرار كل بنايات الشّارع الطّويل، لسنوات طويلة أحمل صفة طبيب نفسي، جئت من الجزائر العاصمة سنة ١٩٩٤ مدعوًما من أصدقائي الأطباء لملء الفراغ الموجود في المدن الداخلية، خاصة في هذا الاختصاص الجديد، مجيئي ليس طمعًا في جمع المال، بل هروبًا من قصّة حب فاشلة، دامية، أجل حينها أنقذتني عبير المدرّسة في الابتدائي، كنت يائسًا من الشفاء، في المستشفى وحيثما أولّي وجهي أرَى وجه سهى الباسم الغامض. أجري في الرواق خلف طيفها، يتحوّل إلى سراب أتعقبه يوميّا. ملّ أصدقائي من أسطوانة مشروخة عنوانها سهى. أحسست بهروبهم مني. إذ ظهرت عبير في أوائل الخريف، منتصف الثمانينيات، بالضبط في مستشفى «مصطفى باشا» أذكر أنها جاءت من مدينة بودواو حيث تسكن رفقة والدتها وتشتغل معلمة في مدرسة ابتدائية غير بعيدة من سكناها، جاءت لزيارة أحد أقاربها. كنت تائهًا في الرواق، إذ أوقفتني بحياء الصبايا..

- «سيدي..»

كأنها لمست بكلمتها تلك، كل أوجاعي، ضربتْ كل قناعتي وأوهامي في الصّميم بضربة قاصمة، كالحب الخالد مثلًا. نسيتُ بقية القول، استجمعت ذاتي لأقف أمامها بحماس:

- «نعم آنسة؟»

- «أسألك عن مصحة الأورام..»

تعلقت عيناي بوجهها العادي، لا شيء مثير في عبير سوى تلك الرّقة المباغتة التي ألهبت عواطفي، نعم، حاولت إخفاء ذاك الجمال الذي لم يره غيري، رافقتها إلى القسم، تناسيتُ زميلتها التي تمشي جوارها، كنت أثرثر كثيرًا وهي تسمعني، عن الزحام، عن المرض، عن بؤس مدننا الباردة عاطفيًا. مذهولة من تصرفاتي الطائشة في منتصف النهار، كنت مراهقًا حقيقيًا بتلك الحركات، والسعادة غمرتني فجأة، أوصلتهما إلى باب القسم مع تمنياتي الصادقة بالشفاء لقريب عبير، كانت تكتفي بهزة من كتفيها أو ببسمة تخترق كياني، أو بنظرة بريئة.. في الأخير، التفتت قائلة:

- «شكرًا، باي».

دلفتا القسم، احترت في طريقة مثلى للتّقرب منها، كان عليَّ نصب كل الحواجز الحقيقية والوهمية للإيقاع بها. انتظرتُ قرابة السّاعة قبالة القسم المهيب، رأيتها بين الزائرين تتقدم بثقة كبيرة، بينما صديقتها تضحك لعلها تذكرها بمجنون هو أنا، تقدمتُ منهما، فاجأتها بسؤالي عن صحّة المريض. أجابت بابتسامة رقيقة:

- «لا بأس، بعد استئصال الورم، ربي معاه».

تجرأت وقدمت نفسي:

- «هشام عبدي طبيب نفساني، إن احتجت إلى أيّ شيء أنا في الخدمة».

- «شكرًا دكتور».

- «العفو، هل ممكن أتعرف على حضرتك؟»

ترددت لحظات، صديقتها ابتعدت عنا بخطوتين، الأمر صار أكثر جديًا، أبطأت في الخطو مع خجل جلّي في وجنتيها.

- «أجل، موش مشكل، أنا عبير معلمة، من مدينة بودواو».

- «عاشت الأسامي، أتشرف بمعرفتك عبير».

افترقنا عند الباب الرئيسي، لم أكن أتوقع رؤيتها مجددًا مع ذلك لن أفرط في ساعات الزيارة، كأي سجين يترقب ظهور أحد أحبته. قلبي يقول إنها ستكرر الزيارة لا من أجل المريض بل من أجلي، عقلي يقول إطلاقًا لن تعود لأني ثرثرت أكثر من اللازم، ثرثرتي لا معنى لها. تجدني أتسكع في فترة الزيارة لساعة ونصف يوميًا، في الرواق، أحملق في كل الوجوه، صرت أعرف بعضهم، أعرف اتجاهاتهم، ما يحملونه في أكياس بلاستيكية، أو أقبع أمام قسم الأورام مباشرة إلى أن يغادر آخر زائر المبنى، أتقهقر إلى مكتبي حزينًا أو أخرج بحثًا عن وجه أنثوي يكون قريبًا من ملامح فتاتي الصغيرة.. بعد أسبوع بالضبط، أمسية الإثنين، أراها بين الجموع الغفيرة الزاحفة نحو المستشفى، كانت وحدها، تحمل باقة ورد، تسارعت نبضات قلبي، قلت حينها بخجل: هل هو الحب؟

تقدمت نحوها:

- «مرحبًا عبير».

- «أهلًا دكتور».

لم تخف سعادتها وهي تصافحني بحرارة. نسيتُ أمر الزيارة وهي ترافقني خارج المبنى، انزلقنا إلى شارع «حسيبة بن بوعلي» الغاص بالسواح والفضوليين والعشاق، كنت رومانسيًا جدًا وشاعرًا، إذ تتلاحق كلمات الإطراء والغزل على لساني، تغمرها، فلم تجد سوى الصمت المطبق غير مصدقة لكل ما يحدث لها، غير مصدقة هذا الحب المفاجئ، لم تتوقف مفاجآتي تلك الأمسية، لعلها الحمّى أو الضياع، فقلت بوعي:

- «هل تتزوجيني عبير؟»

لم تصدق جنوني الذي تلبسني دفعة واحدة، تنظر إليّ بدهشة وبريبة لا تليق بها إطلاقًا.

قالت بعد صمت طويل:

- «صدقني سيد هشام، فاجأتني، يبدو لي أنك تسرعت».

- «ممكن تسرعت..».

كانت تنظر إلى الخارج من نافذة صالون الشاي، لحظات أنتظر مزيدًا من البوح وجرعات من الأمل.

قالت أخيرًا:

- «هـل تمهلنـي وقتًـا لأفكـر، بصراحـة فاجأتنـي، ثـم لم أعرفـك جيـدًا، بالـكاد أعـرف اسـمك؟»

- «لك ذلك».

تعلقـي بهـا يومهـا مسـألة حيـاة أو مـوت، جـرت أمورنـا بسرعـة غريبـة حقًـا، تزوجنـا بسرعـة لا تليـق أبـدًا بطبيـب نفـسي ومعلمـة تتأنـق دائمًـا، بعـد سـنة رزقنـا بسـامية، كان الأمـر مفرحًـا للغايـة رغـم ظروفنـا الاقتصاديـة الصّعبـة جـدًا بسـبب غـلاء كـراء الشـقة في حـي بـاب الـزوار، المؤسـف في الموضـوع بـل المـؤلم جـدًا هـو تغيـير الشـقة كل نصـف عـام بسـبب الجشـع الـذي انتـاب أصحـاب الشـقق، لم نسـتقر قـط، ذاكـرة سـامية مليئـة بتفاصيـل الترحـال المفاجـئ مـن حـيّ لآخـر، في كل تنقـل نضيّـع جـزءًا مهـمًا مـن متاعنـا وذكرياتنـا. رحلـة البحـث عـن شـقة اجتماعيـة تؤوينـا كعائلـة محترمـة مـن سـابع المسـتحيلات رغـم كـذا وسـاطة اسـتعملتها رفقـة زمـلائي الأطبـاء، أن تجـد شـقة في عاصمـة البـلاد وأنـت البـدوي غـير المسـنود أمـر في غايـة الجنـون. تنقلـت بـين الشـقق كثـيرًا، سـئمنا الوضـع. قالـت عبـير يومًـا معاتبـة:

- «لماذا لا تفتح عيادة لتحسن من أمورنا الاقتصادية؟»

فاجأتنـي بالموضـوع الـذي لم أفكـر فيـه مطلقًـا، كانـت تـضرب الأمثلـة بالأطبـاء الذيـن تعرفهـم وكيـف تحسـنت أمورهـم. لم يكـن الأمـر سـهلًا عـلى الإطـلاق، فالعاصمـة مليئـة بخـبرات وكفـاءات أقـول لهـا، أيـن أنـا

من هؤلاء؟ يغضبها ردّي البائس، واستسلامي لمصير متعب لنا ولسامية الصغيرة بشكل أخص. الفكرة مقبولة جدًا. فكرت في سيناريو خروجي من الوظيفة العمومية إلى عمل لحسابي الشّخصي، المسألة واضحة في نهاية المطاف وسهلة. شاركت صديقي «ياسين» في الأمر لإيجاد بدائل حقيقية لأزمتي، فكّر معي ليفاجئني ذات صباح باقتراح مجنون غير قابل للتطبيق. إذ قال:

- «صديقي لو تنتقل إلى مدينة داخلية، قريبة من العاصمة، عذراء في مجال الطب النفسي، أكيد ستجد راحتك، ونحن نتخلص من ثرثرتك وماضيك».

سألته:

- «أي مدينة تقصد؟»

قال في كلمة واحدة:

- «البويرة».

ثم أضاف بثقة:

- «لعلمك لا تربطني بها أية علاقة، لكنها الأقرب إلى الواقعية وستسعدك بكل تأكيد».

رفضت طبعًا، أضفت متسائلًا:

- «لماذا فكرت في البويرة تحديدًا إذ لا علاقة لك بها سواء التاريخية

أو العاطفيـة كـما تدعـي؟»

قال الصديق:

- «لسـبب بسـيط، أولًا فالمدينـة تخلـو مـن الأطبـاء الاختصاصيـين خاصـة في الطـب النفـسي، ثـم تنامـى الخـوف والجنـون في كل المـدن الداخليـة الشـمالية، هـي فرصـة يـا أخـي أن تثبـت جدارتـك».

- «كيـف آخـذ عبـير إلى مدينـة داخليـة كالبويـرة، هـي قريـة يـا صديقـي. قريـة مليئـة بالإسـمنت والتبـن، مـررت يومًـا بوسـط البلـد، رأيـت العجائـب هنـاك، شـاحنات قديمـة، بـين مقهـى ومقهى مقهـى آخـر. لا لا لا لا تعجبني».

في الليـل، فكـرت كباقـي الخلـق في إيجـاد حـلّ لمعضلـة في ظاهرهـا اقتصاديـة وفي جوهرهـا عاطفيـة، فكـرت في عـرض ياسـين بشـكل جـديّ، قلبـي يقـول لِـمَ لا تجـرب؟ في اليـوم الثـاني تنقلـت بمفـردي إلى مدينتـي المسـتقبلية، التـي كنـت أراهـا بشـعة، كنـت أسـمع عنهـا مـن خـلال أنبـاء التلفـاز عـن الجماعـات المسـلحة التـي اسـتوطنت بعـض المناطـق الجبليـة، عـن المجـازر التـي اقترفتهـا جماعـات إرهابيـة بـين الحـين والآخـر ضـد مواطنـين عـزل، ثـم لم يكـن لي صديقًـا أتكـئ عليـه في مدينـة تقـع في مفـترق طـرق كبـير تتوسـطه نافـورة وامـرأة مـن رخـام تحمـل ملامـح المجاهـدة الكبـيرة «فاطمـة نسـومر».

جـرت الأمـور كما أشـتهيها ولم تكـن متوقعة، رأيـت المدينة تلـك الصبيحة بشـكل مختلـف، بـدت مـن ربـوة الريـش كنجمـة صغـيرة مشـعّة بالفعـل،

تمشيت ببطء في أزقتها، شربت قهوتي في مقهى الفرسان، أخيرًا ذهبت إلى مديرية الصحة لمزيد من الاستفسار، حدثوني عن مزايا البويرة، جمّلها البعض، وشكّك البعض الآخر في إيجاد شقة جديدة تصلح فعلًا لعيادة الطب النفسي. أحدهم وهو ممرض شاب، قليل الكلام، طلب مني مرافقته إلى وسط البلد أو «الفيلاج» كما يسمونه هنا، في طريقنا وعدني بحل سريع، بإيجاد شقة للعمل وأخرى للسكن، الأمر لن يكون سلسًا لكن سأحاول، أضاف: المدينة تريّفت بسرعة مذهلة، بسبب الهجرة التي شهدتها في السنتين الأخيرتين، بسبب الإرهاب الذي يضرب بقوة في الأرياف وفي القرى القريبة، على كل، المدينة مظلومة بالأحكام المسبقة يا سيد هشام، ستجدها مختلفة بالفعل وستعجبك. أخذني في رحلة طويلة مشيًا على الأقدام إلى «شارع ستراسبورغ». قلت بلا تفكير: يا ريت هنا. هل ممكن تجد شقة للعيادة في هذا الشارع؟ أما السكن لا يهم، أسكن في أي حي».

قال الممرض الشّاب:

- «يا رب، لا تقلق حتمًا سنجد ما تريده».

صديقي الذي لا أعرفه جيدًا حدثني بعد أسبوع هاتفيًا، أخيرًا وجدا شقتين مناسبتين جدًا حسب وصفه، خاصة الشقة التي أستعملها كعيادة التي وجدها في الشارع الرئيس، تنقلت ثانية إلى المدينة استكمالًا للإجراءات الإدارية المعقدة جدًا، وكذا تأثيث العيادة وتجهيزها، لم أكن غريبًا بعد ذلك بوجود ثلة من الأطباء في المستشفى العام الذين رحبوا

بي وشجعوني جدًا.

نقلت الخبر لعبير بحماس فياض، عدّدت مزايا المدينة، القريبة من سلسلة جبلية كبيرة معروفة باسم «جرجرة»، أشبعتها وصفًا للحي والمدرسة الجديدة التي تعمل فيها «مدرسة البشير الإبراهيمي» العريقة. وافقت على مضض، في المجمل موافقتها بتلك السرعة لا علاقة له بحبها لي، هذا تجاوزه الزمن، ولم يكن تضحية، بقدر ما له علاقة بمعرفتها الأكيدة بقصة سهى حيث يسبقني عطرها أينما توجهت، هكذا هربت رفقة عبير من قصة ملتهبة إلى قصص أكثر التهابًا. لم تطل فترة الترقب وانتظار قبول ملف فتح العيادة، مع توسط من صديق مهم لدى السلطات، شهران فقط، جئت مساءً إلى البيت سعيدًا أو بين وبين، كانت عبير منشغلة بتصحيح كراسات تلاميذها، وسامية تنط في الصالون الضيق، بصعوبة أعلنت قرار الانتقال لاعتبارات اقتصادية بحتة..

تقاطعت الأسباب لأكون الشخص المناسب حقًا في تدوين يوميات مدينة داخلية كانت إلى وقت قريب هادئة ومسالمة، ويوميات أشخاص يتوافدون فرادى وجماعات وفضوليين إلى عيادتي. كنت الشخص المناسب الذي ائتمنوه على أسرارهم وعقدهم وتفاصيل غنية بالإدهاش والرعب وثغرات تحتاج إلى مرمّم فنيّ ربما أكون أنا ذاك المرمم. تجمعت الآن تلك الأسباب لكتابة هذه الأوراق بكل الضمائر، وتفريغ السجلات والملاحظات والأسئلة التي صدّعت الجميع، أتطفل بعد هذا العمر على حيوات شخصيات معدمة، في الأصل جاءت بمحض إرادتها للثرثرة، وليس

بالمجان، بل كانوا يدفعون بعد كل جلسة استماع، نعم كانوا يثرثرون أحيانًا، يصرخون، يصمتون أحيانًا، كأنك تحفر في أسفل جبل صخري لاستنطاقهم، تصور وأنت تحاول استنطاق شخصية مثيرة «كراس الكيلو» -عفوًا- عمي بشير، تصور أنك مجبر على استنطاق باية البكاءة لفترة، والصامتة بل الغارقة في صمتها الأبدي المحكم جدًا..

لم تكن وحدها الجبل الصخري، عدد كبير من الرافضين لمسألة التعري والغوص في دهاليز الذاكرة.. نعم، البعض يجيء من أجل الثرثرة، فيها نسبة كبيرة من الكذب ونسبة كبيرة من الخلط المتعمد للتضليل أو التقليل من درجة مرضه، بتعالٍ مفضوح، سرعان ما يجبرني المريض لأضعه أمام الحقيقة التي يحاول إخفاءها عن نفسه أولًا وعن الآخرين ثانيًا. الآن أساعدهم جميعًا للمضي قدمًا في نشر كتابهم الأسود الذي يليق بمكانتهم. حتى بمكانة قاتلي المحتمل «الرينقو» بل سأرافقه إلى اللحظة الحاسمة الفارقة من حياتي، وهو ينهيها في رمشة عين، حتى ولو يرفض سماعي للمرة الأخيرة عن القصة المزعومة التي تسبب لنا كل هذا الارتباك والنواح واليتم. سأكتب كلماته السّمجة، ستكون له المساحة الكافية ليقول هبله، جنونه، صراخه، ضياعه في دهاليز العاصمة لعام كامل متنقلًا بين ساحة صوفيا وساحة الشهداء، بصقه على صورة «فرويد». سيقول حكايته، عن أيامه التي قضاها سجانًا في سجن المدينة، في آخر الشهر يتباهى بأجرته التي يسحبها من البريد ثم يأخذ مريم في عطله القليلة إلى مدينة بجاية. يقتني لها هدايا

بسيطة تغذي حياتهما المملة المليئة روتينًا في الحيّ الشّعبي، في أسرة كبيرة يتحكم الأخ الأكبر في كل صغيرة وكبيرة تخصّ تسيير أمور العائلة، هذه الزعامة المفرطة في التضييق والتشدّد أربكت مريم بوجه خاص، تتحوّل مع مرور الأيام إلى كراهية غير معلنة بينهما بسبب التسلط البيّن الذي أنهكها وجعلها تخرج من حيادها وتعقلها، لكن الرينقو/ علاوة سابقًا، لا يحرك ساكنًا أمام ثورة مريم التي لا تتوقف عن إذلاله من جراء تبعيته الكاملة لأخيه..

كما ترون مصادري كثيرة تلك التي أستمد منها معلومات كانت مدخلًا مهمًا لمرحلة العلاج قبل أن تتحول إلى مادة دسمة غنية بالتواريخ والأمكنة والروائح والرسائل والأحداث والوجوه في كولاج قصصي يتضمنه هذا الكتاب الأسود. لماذا الكتاب الأسود؟ ليس لي الإجابة النهائية على الأقل الآن، ربما خطر لي هذا العنوان فقط قبيل ساعات، ربما في فجر هذا اليوم وأنا ممدد على السرير وأذني إلى الخارج تلتقط أول الصياح، في نفس الوقت داهمني هذا اللون القاتم كمتشائم أو لعلي معجب بالسواد مذ كنت شاعر الجامعة في السنتين الأوليتين، أفضل القلم الأسود في كتابة خواطري وقصائدي، أحيانًا أجد صعوبة في اختيار القلم عندما عمّت الندرة ووصلت إلى الأقلام الأنيقة. ألا ترون حتى الطبيب النفسي له نقاط ضعفه وعقده ومرضه الشخصي المزمن؟

إلى حد هذا السّطر لم أقل أني كنت كاتبًا، ربما حياءً منكم ومن الكُتّاب الأفاضل المحترمين، بالتأكيد كتبي لم تلق الرّواج المطلوب وربما

لم يسمع بها أحد من قبل، ولم يحدث إطلاقًا أنها سببت طوابير من القراء والمعجبين الذين ينتظرون توقيعًا مني أو اقتنائها من المكتبات والمعارض، ولم يتحدث عنها حتى صغار الصحفيين الذين يتلقون التدريب في أول مشوارهم. أجل، كتبت أبحاثًا في التحليل النفسي، عن السّادية، والعنف الأسري، عن الخرافات التي عشّشت في مدننا، نشرت بعض مقالاتي في مجلات مختصة وفي صحف الحزب، لم أتصور يومًا أجلس لكتابة سيرة/رواية، كهذه المرة وأنا حبيس شقة عمي بشير المبجل. لم أفعل رغم كل الاستفزازات العاطفية والسياسية والاجتماعية التي تدفعني لخوض غمار الكتابة الروائية أو السردية، لم أجرب حظي في كتابة رواية، لعل الأحداث الجسام التي عشتها كعاشق لم تكن كافية بالفعل لتفجير طاقاتي الكامنة، ولم تلهمني الأحداث السابقة الكبيرة رغم خطورتها وتشظّيها للوقوع في شرك السرد المهيمن في السنوات الأخيرة، كما ألهمتني هذه الأشهر القليلة الماضية، ربما هذا التشابك والتقاطع في المصائر المدهشة جعلني أجلس وأفرغ الأشرطة والكناشات لأقترب أكثر من هذا الفيض الجميل والاستثنائي، من شخصيات فقدت الأمل في الحياة، فقدت هويتها، وتماسكها، وهذا مثير حقًا. كيف لا أهتم بما تبقى من حياتي في ربع الساعة الأخير بهذه الشبكة من العلاقات التي صنعتها الصدف الغريبة؟ (مع أن القاتل في إحدى الزوايا يترنح ويصرخ ويتوعد ويترصدني) هي الصدفة بحق التي صنعت مشاهد رعب ودموية في أكثر من مكان، أمامك، في الجوار، كانفجار قنبلة قرب محطة نقل المسافرين، أو بمحاذاة مقهى شعبي لم يتسن للفاعل وضعها

في قلب المقهى. فيسقط الضحايا دون سابق معرفة بينهم، ولِمَ التقوا في تلك النقطة المركزية للموت.

تتحوّل ليلياتي إلى سلسلة متصلة من الخوف والترقب والاختباء وإطفاء التلفاز وتجنب الجسد الذي بجنبك بسبب الضعف وعدم القدرة على التمدد أو الرغبة فيكفي الواحد منا بالانكماش وعدّ نبضات القلب الواهن، واللحظات التعيسة والفجر بعيد بعيد. أو ينخرط البعض منا في مرحلة تمويه ومناورة في أزقة المدينة وأحشائها التي تحسبها آمنة لكنها في آخر الأمر ليست بالآمنة. تجدني في الشرفة شبه عاطل عن العمل، في انتظار الزبائن الذين أضربوا عن الفحص والمرض. أترقب ككل الحيارى، فألاحق بعيني حركة المارة المشوبة بالريبة والتماهي في محاولة يائسة لقهر الجنون القريب من عقولهم، لقهر الموت الذي يتربص بهم، لقهر الخوف.. أتساءل: كيف حدث كل هذا النزق والعنف؟

سنة، سنتان، سنوات من الضّياع في عيادة ضيّقة، تضيق يومًا بعد يوم بشخصي المتواضع. شعرتُ بالتفكك اليومي إذ تتبخر أحلامي الكبيرة، كنت كديناصور محنّط في ساحة عمومية، يبدأ يومي العادي جدًا من مقهى «السلام» ثم كشك لاقتناء جريدتين، ثم لجأت مجبرًا إلى تخفيض المصاريف إلى حدّها الأدنى، بتوديعي المقهى ثم طلاقي للجرائد ثم المشي على القدمين من مقر سكناي إلى العيادة، ثم الابتعاد نهائيًا من كل إغراءات المحالّ التجارية، فكانت عبير هي التي تدبر مصاريف البيت وكل الضروريات بل الأدنى فقط تتلخص في الخبز والحليب والقليل من الخضروات. لم يعد لي سوى الانكماش عند الزّاوية منغمسًا في قراءة كتبي القديمة، أجترّها اجترارًا في انتظار الزبائن الذين هاجروا المرض والقلق والوسواس، في حالات الذروة من التيه، تجدني أكتب لها رسائل طويلة أشكو همومي المتراكمة، ذاك الملل الذي يتسلل إلى عشي البسيط، إلى قلبي، فأضطر بالكتابة لها: كم أنا بحاجة إليك سهى! يأتيني هسيسها سكينًا يقطعني إربًا إربًا... أمزق القصاصات في آخر الدوام المزعوم. بلغ بي القلق إلى أن أكاد أعلن في كل أرجاء المدينة أن عيادتي التي افتتحتها بديون تراكمت كثيرًا ستغلق يا أوغاد، وعائلتي الصغيرة يقلقها وضعي الاقتصادي والنفسي. ماذا تريدون أكثر من هذا الشقاء الأسود ربيعًا وصيفًا وأفكار سوداوية تلازمني؟

هل أحدثكم عن سخرية جيراني التجار الذين يبكّرون ويفتحون محالّهم التجارية وطوابير لا تنتهي من الزبائن الكرماء، يجيئون كل صباح

لقضاء حوائجهم التي لا تنتهي من مواد غذائية وتوابل وملابس. أتابع ضجيجهم ورنين النقود المعدنية التي تصبّ في الأدراج الكبيرة. حينها أتساءل: هل أخطأت العنوان في اختيار مدينتكم؟ لم يعد المرض بكل أنواعه يقلق سكانها. أحيانًا أقول وبيأس: «أتمنى أن أجد عقارًا ليجنّ الجميع فأجدهم في صباح ما مجبرين بالوقوف أمام الباب في طابور طويل... النجدة يا طبيب يا.. أنت.. يا هشام..» مرّات قليلة على مدار العام الطويل الذي كنت منسيًا في شارع مهجور شهير، أسمع دقات على الباب، دقات عنيفة طبعًا، نسيتُ والله أني هنا في انتظار مجانين وانفصاميين وساديين، إلخ من أمراض العصر العجيب، نسيت أني طبيب مختص في العلاج النفسي، فأنهض من مكاني مستعجلًا، متمتمًا وسعيدًا، أرحب بالزّبون الذي هلّ، أبالغ في الترحيب به، حتى أستنفذ كل الكلمات المستعملة بكثرة في قاموس التجار، تلك العبارات الجاهزة النمطية، فتختفي بسرعة البرق البسمة من محياي لسبب بسيط، فالطارق هو الآخر أخطأ في العنوان، الأول جاء بحثًا عن طبيب الأمراض الصدرية والثاني إن لم تخن الذاكرة طالبني بفحص شامل، والثالث والرابع...

بالكاد أفهمهم أني طبيب من نوع خاص، أسرع لسحب البطاقة من علبة صغيرة تآكلت أطرافها، فيها اسمي بالكامل، عنواني ورقم الهاتف، (لكني لا أتجرأ بإخبار الزبون بقطع الهاتف من مصلحة البريد ولم أشأ إخبار عبير بذلك حتى لا تتأذي أكثر مما أذيتها) تحتها دونت كل الأمراض التي أعالجها، الشهادات التي تحصلت عليها من جامعة

الجزائر العريقة وكذا التربص الذي أقمته في باريس. أضع البطاقة في جيب سترة الزبون، مع الشرح الوافي الذي أكرّره مع كلّ مريض يخطئ في العنوان: «أعالج الأمراض النفسية والعقلية والجنون والوسواس والانفصام والشقيقة والأوهام والتذبذب والاهتزاز النفسي».

أول زبون حقيقي دفع ورقة نقدية ذات الخمسمائة دينار مشكورًا على ذلك، قصدني ذات صباح، كان يعاني من مشكلة الأرق رغم محاولاته الكثيرة وزياراته المتكررة للأطباء، الليل بالنسبة له عذاب حقيقي. يخاف من النوم بسبب العنف. كان يفضل أن تداهمه الجماعات المسلحة وهو مستيقظ على أن تغتاله وهو نائم.

- لماذا تخاف إلى هذا الحد؟ أسأله.

- طبيعي أن أخاف، الإرهاب أعمى سيد هشام أليس كذلك؟

لا أذكر ملامح وجهه جيدًا لكني أحبه بالتأكيد، عندما جلس قبالتي عرفت حينها أن الحالة هي حالتي، وأن باب السماء فُتحت لي أخيرًا، هل من مزيد؟ لا أعرف.. طمأنت المريض بكثير من الكلمات كمدخل ضروري، قبل أن تفاجئني قدراتي العجيبة وأنا أسترجع صوتي وكلماتي وصفحات من ذاكرتي للتو أحدثه بسلاسة، بثقة، أفكار متدفقة منتظمة كخبير حقيقي لم يفقد بعد موهبته، ربما طمستها الأيام والعزلة لكنها تستيقظ في الوقت اللازم ولم يفقد تمامًا صلته بالطب النفسي وعالم الجنون، قلت بحسم: سيدي أنت بحاجة إلى القليل من الثقة فقط، الثقة عامل مهم في العلاج النفسي، أتذكر الآن فرحتي تلك المباغتة لكل

حـواسي، عينـاي ولسـاني وحتـى أعضـائي الداخليـة انتفضـت جميعها. أسـهبت في الحديـث والـشرح المطـول: «الأرق مـن مشـكلات العـصر هـذا صحيـح لكـن علاجـه مؤكـد، سـتنام الليلـة بـلا شـك. عليـك فقـط أن تضـع في رأسـك يـا عزيـزي مسـألة حيويـة وهـي النـوم وأنـت تضطجـع لتنـام وتسـتعد فعـلًا عـلى قهـر الأرق».

كان سعيدًا جدًا، قال:

- سأعود إليك يا دكتور في كل الحالات.

كانـت قضيتـي الأولى في مدينـة جاحـدة، هـي مفتاح لمشـاكلي الاقتصادية والنفسـية والعاطفيـة التـي تراكمـت بالفعـل، قبلـت تلـك الورقـة النقديـة التـي وضعتهـا عبـير في إنـاء كانـت تتفـاءل بـه لا أعـرف سره لكنهـا قـررتْ ألا نـصرف تلـك الورقـة النقديـة الأنيقـة رغـم حاجتـي إليهـا تلـك الأمسـية. قلـت لهـا: «لا عليـك، إنهـا لـك». نمـت قريبًـا منهـا، نسـيت منـذ متـى لم أباشرهـا.. تبًـا... كانـت ليلـة رهيبـة بالفعـل، قلـت للآخـر الـذي يشـبهني.. «ليلتـك سـعيدة».

زبونـان اثنـان، ثلاثـة زبائـن في اليـوم، سـتة في القائمـة، مـن بينهـم أولئـك الذيـن لهـم الشـجاعة الكافيـة لاستشـارتي في مشـكلات تعتـبر طابـو، كالقـذف السريـع، ومشـكلة ضعـف الانتصـاب عنـد البعـض، ومـرض الصـورة الرمزيـة للعضـو الذكـري التـي تنتجهـا وسـائل الإثـارة وتشـوّش عـلى المتزوجـين حديثًـا، حتـى الكهـول تجدهـم يتأزمـون مـن الحديـث عـن الصـورة غـير الطبيعيـة التـي تنشرهـا المجـلات والشاشـات. هـي الحـالات الأولى مـن تاريخ

عيادتي الصّغيرة، الحالات المرضية التي عالجتها بحكمة ودهاء، منحتها كل قدراتي وحبّي بشكل خاص للمرضى ترويجًا للعيادة أولًا، وتحصينا لمعلوماتي العلمية الطبية قبل التّلف التام.

أنقل تلك المستجدات المفرحة لزوجتي «عبير» فتبدي سعادتها، رغم متاعبها المهنية في مدرسة ابتدائية، تشدّ على أزري لأحرص على المواعيد والتحضير الجدّي لكل حالات الطوارئ، لأني بدأت أشمّ بعضها في الطريق الشّاق بحكم التجربة ورغبتي الأكيدة في تخطي أزمة الزبائن. لاحقًا، اقترحت زوجتي عبير توظيف ممرض أو ممرضة لمساعدتي، أضافت بسعادة: «ككل الأطباء المحترمين». قبلت على الفور لأنها وضعت يدها بالضبط في المبتغى، لم تتردد في ترشيح اسم «زبيدة» ابنة جارنا في العمارة، لم أستغرب اختيارها لها، رأيتها مرات قليلة، ذات قوام رجالي بامتياز، عدّدتْ عبير مزاياها الكثيرة، ولم تقل أيضًا أنها قبيحة لن تثير شكوكي أبدًا يا زوجي العزيز.

قبلت اقتراحها على مضض، في صبيحة اليوم التالي جرت الأمور بشكل سلس بالضبط كما تريد عبير. جاءت زبيدة بشكلها الذي لم يتغير بين ليلة وضحاها، بصوتها الخشن، لكن لا بأس، بدليل أنها في أول ساعة من عملها أبدت استعدادًا ورغبة في التعلم كترتيب أموري في قاعة الفحص وفي قاعتي الانتظار، كانت تجيء باكرًا لتسجيل قائمة المرضى حسب الأولوية، الأمر لم يتوقف عند هذا الحد إذ لها علاقات متعددة في المدينة، بواسطتها اكتسبت زبائن جددًا. اكتشفت لاحقًا ميزة

أحسد عليها في ممرضة كانت من المفروض صديقة عبير ولم تنتبه إليها في الوقت المناسب أو لم تختبرها من قبل، فإلى جانب إتقانها للعمل فهي أيضًا كتومة جدًا، أمينة أسراري، تأكدت مرارًا أنها بالفعل الشخص المناسب في المكان المناسب، فهي تدير شؤون عيادتي بحكمة وتفان.

ذات صباح شتوي، كانت زبيدة قد ضبطت القائمة التي لم تتعد أصابع اليد الواحدة، كنت في القاعة ألبس مئزري وعيني على الشرفة أسترق النظر إلى حديقة الأسود الثلاثة، حيث اللقلق «الملك الحزين» يراقبني من عشه، في حالة انتشاء رائعة وأنثاه قريبة منه في كامل أناقتها وترقبها. مشهد رومانسي يشدني كل صباح، كان إلى وقت قريب ينسيني عذاب الفراغ الذي يتغلغل في حياتي من كل الثغرات والفتحات الممكنة والمستحيلة، فالمشهد يجعلك تتهيأ لاستقبال الأجمل، لكتابة قصيدة شعرية تنسيك صوت الرصاص المهيمن.. بم بم، بم.. تبادل إطلاق النار الكثيف القريب في قلب المدينة. أتنصت. من أين؟ أسأل زبيدة الواقفة هي الأخرى في الشّرفة الثانية تسمع دويًا أو انفجارًا قويًا، تعيد إغلاق نافذة الشرفة، تقول: يبدو قريبًا من مدخل المدينة، استرنا يا رب... إذ بأصوات بشرية تخترق جدار الصمت، فوضى، ضوضاء، وفوضى قادمة نحو عيادتي، صراخ وعراك حقيقي يقترب شيئًا فشيئًا، سريعًا، يقترب، تقف على أصابع قدميها المشلولتين، من الصراخ، من أزيز الرصاص الذي لم يتوقف قرابة عشر الدقائق... واللقلق بدوره داهمه الخوف، على ما يبدو سيؤجل فعلته.. فجأة يشرع الباب

الخشـبي عـلى مصراعيـه، كانـوا ثلاثـة والرابـع مقيـد بحبـل، المكبـل إلى جانـب أنـه طويـل القامـة أبـدى مقاومـة ولا يـزال بتسـمره المتكـرر كلـما حاولـوا إدخالـه بالقـوة داخـل بهـو الشـقة الـذي يـؤدي إلى قاعـة الفحـص.

كان ملتحيًـا نحيفًـا، عينـاه جاحظتـان، وامـرأة تلتحـف السـواد كأنهـا في حـداد، خلـف المشـهد غـير موافقـة بالمـرّة عـلى فكـرة القيـد بالحبـل، كأنهـا تبـكي، تشـكو أمرهـا للـه، تجتهـد بـإصرار عجيـب في لحظـات قليلـة لتضـع الآخـر الغريـب يتعاطـف معهـا كونهـا امـرأة ومغلوبـة عـلى أمرهـا، مـع ذلـك لم يلتفـت أحدهـم إلى اعتراضهـا في وقـت عصيـب، مـع ازديـاد صراخ المكبـل بالشـتم والسـب والـركل، كأنـه يسـاق إلى حبـل المشـنقة.. أجلسـوه بالقـوة الواجبـة إزاء أمثالـه، القـوة لا غـير، زبيـدة اعتراهـا الشـحوب كونهـا أول مـرة تـرى حالـة هسـتيريا مشـابهة، قالـت عقـب الموقـف: ألم تقلـق يـا دكتـور؟ خفـت عليـك.. ألم تـر عينيـه المليئتـين شررًا واحمـرارًا؟

لم تعـرف زبيـدة أني كنـت مشـغولًا بصوتهـا الدافـئ الـذي اخـترق ذاتي المغلّفـة بالبذلـة والمئـزر والعائلـة المتكونـة مـن عبـير وسـامية ابنتـي.. صوتهـا كان سـهمًا حقيقيًـا.. عندمـا اقتربـت أكـثر، تنبهـت لمـا هـو أهـم مـن صوتهـا، وجههـا الأسـمر. هـي، أجـل، قامتهـا المديـدة، نظرتهـا الدافئـة. هـي... في كثـير مـن التفاصيـل رغـم الهـزال الـذي شـوّه جسـدها. تحاشـيتُ النظـر في عينيها، لكـن كيميـاء خاصـة تجذبنـي إليهـا رغـم أنفـي وميثـاق شرف المهنـة. صوتهـا أعـادني إلى الـوراء سـنوات وسـنوات إلى عاصمـة البـلاد، إليهـا. هـل مـن حقـي في تلـك اللحظـة الرهيبـة أن أقـول لهـا: أهـلًا سـهى؟ مجـرد تسـاؤل بـريء

تبادر بشكل حارق، لا أعرف من أين خرج بتلك الحرقة؟ أما هي تجاهلت وضعي، مكتبي الجديد، بؤسي قبل كذا سنة، تجاهلت أني كنت أمامها بمئزري الأبيض.. ها أنا.. أجلس متهالكًا، أتصنع الهدوء بعد زوبعة اقتحامها جراحي القديمة.

فتحت كناشة جديدة.. بينما الرينڨو أمامي (جمل مشطوبة، ربما كان بصدد وصف الرينڨو إلى أنه تراجع) يرتدي معطفًا رماديًا، ممزق الأكمام، كان هزيلًا منكمشًا بعينين جاحظتين مخيفتين لا تتوقفان عن الحركة السريعة يمنة ويسرة، والزوجة تتحايل لفكّ القيد المحكم تارة وتارة أخرى تمرر منديلها الأزرق على شفتيه المتورمتين وقد بدا اللعاب واضحًا على طرفي الشفتين المشققتين من فعل البرد القارص. قال الأخ الأكبر:

- «إنه أخي يا دكتور، كما ترى عنده سنة وهو غائب عن البيت».

قلت:

«أين كان؟»

- «قيل كان في العاصمة، تمرمد بزاف عرفنا أنه في العاصمة، اليوم بالصدفة وجدناه نائمًا عند باب البيت».

- «جيد، جا وحدو...»

- «إيه، حاولنا إعادته لكن في كل مرة يفر من حصارنا».

ما زال الرينڨو ينظر في وجهي، نظراته باردة، ثاقبة. جائعة، شكّاكة.

قـال أخـيرًا:

- «أريد أن آكل!»

كانـت الجملـة الأولى مـن نـص عـلاوة المعقـد، المفـكك، لا حيلـة لي سـوى الصّـبر، في تلـك السـاعة الصباحيـة. عيناهـا السـوداوان تمـلآن الفضـاء، حيويـة وحنـين يدفعنـي لارتـكاب أجمـل الحماقـات.

قلت لهم:

- «لا بأس، أحدكم يأتيه بسندويش»

كنـت ألاعـب القلـم بيمينـي، هـي مـن عـاداتي الحسـنة أمـام الحـالات الصعبـة، كأني أفكـر في حـلّ حاسـم للولـوج إلى دواخـل الشـخصية المنهكـة المركبـة، الخارجـة للتـو مـن العتمـة. زبيـدة إلى جـواري سـكنها الرعـب حقيقـة، أول مـرة تصـادف مريضًـا حقيقيًـا قـد يتحـوّل في أيـة لحظـة إلى مجنـون رسـميّ. هـي تعلـم أني كنـت بحاجـة إلى مـرضى، إلى زبائـن، إلى مزيـد مـن الأمـوال، لكنـي بمسـؤولية قلـت لأخيـه وأقصدهـا أيضًـا لتسـمع صـوتي المرتعـش لعلهـا تتذكـر:

- «حالته من المفروض تعالج عند أخصائي الأمراض العقلية..»

هممـت لكتابـة اسـم الطبيـب السـيد «س محمـد» عـلى قصاصـة بيضاء، فقـال الأخ الأكـبر ملحًـا بـضرورة فحصـه ومعالجته:

- «قصدنـاك أنـت يـا دكتـور، قيـل لنـا أنـت وحـدك قـادر عـلى شـفاء أخـي عـلاوة..»

هـزّ رأسـه موافقًـا، منتشـيًا، شـخصيًا لم أتوقـع منـه ذلـك، سـمعته يقـول لي:

- «أنا الرينڤو سيدي، نعم أنا هنا لأكنس جدكم، كلاب.... ههههه....»

طبيعـي جـدًا أن يكـون لـه اسـمٌ ثـانٍ وثالـث؛ فالمدينـة لهـا قـدرة عجيبـة عـلى صناعـة الأسـماء المسـتعارة، يوميًـا أسـمع أسـماء جديـدة، ربمـا لي اسـم مسـتعار متـداول بـين هـؤلاء القـوم دون علمـي، كأن الألقـاب تسـكن أطراف ألسـنتهم، لتغـدو الأسـماء الرمزيـة تعـبر بصـدق عـن شـخصية حاملـه أو تعكـس مظهـره الخارجـي أو سـلوكه.

قلت:

- «أعـرف أنـك الرينڤـو، لكـن نسـيتُ اسـمك الحقيقـيّ... هـل تذكـرني بـه؟»

- «لا أذكـر، اسـمي الرينڤـو وفقـط، مـا اسـمك أنـت؟ عنـدك بـالي [3] خويـا بوعـلام؟ نكنـس جدكـم، هيـه»

فهمـت مـن زوجتـه أن -أي زوجهـا- سـجّان سـابق في سـجن المدينـة لأربـع سـنوات، كانـت كافيـة ليجـنّ المسـكين، فأصيـب بانهيـار عصبـي مـن جـراء العمـل ليـلًا، وملازمتـه مجرمـين ومتطرفـين وإرهابيـين ألقـي عليهـم القبـض في ظـروف غامضـة. لا تاريـخ للمـرض في العائلـة، ولم يسـبق أن زار عيـادة طبيـب نفسـي، بـدأت قصـة علاجـه مـن الغـرف المظلمـة عنـد الرقـاة

٣ مكنسة.

والمشعوذين ثم فرّ إلى الجزائر العاصمة ذات يوم شتوي بارد، قيل إنه كان يعيش في حديقة صوفيا وقيل إنه كان في مدينة بوحنيفية و.. و.. سنة كاملة وهو في العراء. يؤكد الأخ الأكبر (كان يلتهم جسد زوجة أخيه بلا رحمة «عينا ذئب» كأنه يترصد لحظة ضعف وشيكة، هل هي الغيرة؟) بأن العائلة لم تدخر أي جهد في إنقاذه قبل هروبه ذات فجر، أخذناه إلى الرقاة ثم إلى الأطباء والأولياء الصالحين، أخيرًا سمعنا بمجيئك كأن القدر استجاب لدعائنا بعودته وعاد.. همهمات الزوجة غير مفهومة، يردّ عليها الأخ بصوت أعلى، اتهامات متبادلة بينهما، لم تستسلم إذ واجهته قائلة: «أنت سبب جنونه».

يجيب بحزم:

- «أنت يا بومة، يا وجه النحس، أنت اللي شعلت النار في البيت وحرقتنا جميعًا».

تسكت مريم، كأنه وضع يده في نقطة ضعف لم أتبينها في الحين، تذرف دمعة. ويدها على رأس الرينقو. قال أخيرًا:

- «خويا بوعلام عندك «بالي» أكنس الجميع.. ههههه».

- «أنا موش بوعلام... أنا صديقك هشام».

- «صديقي؟ ههه.... عندك مكنسة؟»

عاد أخوه الأصغر بكيس من شطائر «المحاجب» وخبز وحليب ساخن، وافقت حينها على فك قيده المحكم، لم يكن من النوع الخطر،

ربما من الأفضل إجباره على معايدة الطبيب وإلا سيتحول إلى خطر. التهم الشّطيرة ثم ثانية وثالثة عبأ كوب الحليب دفعة واحدة في جوفه، انهمك وسط صمت رهيب في قضم الشطائر غير عابئ بمن حوله، كنت أراقب جشعه، واستعداده للانقضاض على أحدنا. أخيرًا بحث في جيوبه لعله يجد سيجارة، كان واضحًا من انشغاله بالبحث والاصفرار البادي على أصابع يديه وشواربه التي اصفرت من التبغ.. نظرات زوجته أو سهى تخترق جسدي بين الحين والآخر، تتوسل إليّ بعينيها السوداوين لإنقاذ زوجها من جنونه. تحدّث كثيرًا، متفرقات ومضحكات ونوادر، بين الفينة والأخرى يردد لازمته الوحيدة «علاش خويا دحمان ولينا هكا، البارح خير كاين، الدخان والخير أو لخمير، خويا البارح خير، خير من اليوم، علاش خويا ولينا هكا، دحمان قولي.. البارح ماشي كيما اليوم.. عندك سيجارة خويا بوعلام..»

- «للأسف لا يا علاوة ماعنديش..»

اكتفيت بكتابة وصفة للتقليل من هيجانه، تكررتْ زياراته إلى العيادة وفق جدول زمني صارم، كانت تلك اللازمة التي يكررها علاوة مفتاحًا أوليًا لمرحلة علاجه، اللازمة لازمت ذاكرتي لفترة طويلة، تسكن لساني ووعيي بكل ما تحمله من وجع حقيقي لنا في دهليز مظلم لا نعرف أوله من آخره. في واقع الأمر ظهرت عدّة حالات من الجنون المفاجئ، في الأحياء الشعبية، فوبيا الخوف انتشر بشكل رهيب في كل مكان، ولا تحتاج إلى عبقرية لتحديد الأسباب المباشرة للظاهرة.

بدأ علاوة يستجيب للعلاج، على الأقل بدأ يسترجع القليل من ذاكرته، يتعرف على إخوته وزوجته، ويسرد نوادر المسجونين الذين عرفهم عن قرب. يتذكر حرقتهم، بكاؤهم، صراخهم الليلي. صحيح كان يتألم لكن لا مفر من المواجهة الأخيرة مع فجائع الليل البهيم في السجن كسجّان لفترة قاربت الأربع سنوات. تجيء زوجته أحيانًا بمفردها لتجديد وصفة الدواء، أو لاستفسار يتعلق بنوباته ليلًا، استغل وجودها لأسألها عن أدق تفاصيل زوجها، تصرفاته ونومه، هل من هلوسات جديدة، أو مضاعفات أخرى، لعلي كنت أستزيد أسئلة لاستبقائها لمدة أطول، أراوغ قدر ما أستطيع لأعرف أكثر عن حياتها الماضية قبل زواجها بعلاوة.. ثم هي فرصة لتثرثر عن مأساتها داخل عائلة كبيرة، كان للأخ الكبير القدرة على السيطرة المطلقة، لا تخفي أبدًا قسوتها على علاوة من قبل، كونه رخوًا، بليدًا، ضعيفًا أمام أخيه الذي يتصرف كيفما يشاء في البيت ولا يستطيع أبدًا فرض رأيه أو فكرته أو اعتراضه على قرار غير صائب.. صحيح «تضيف» كنت أشتمه علنًا، أمام والدته، ووالده المنحاز دائمًا، عندما جاءته أول نوبة جنون، كل أفراد العائلة استنفرت قواها لطردي من البيت الذي «خربته». كلهم ضدي، يقولون أني السبب، أعيش في جحيم يومي لا يطاق يا دكتور.

تفرحني تغيرات علاوة البطيئة، لكنها مشجعة، بدليل أنه صار يأكل في الوقت، وينام ويتمدّد ويتناول بمفرده الأدوية في ميعادها، يتنقل إلى مشاوير صغيرة غير بعيدة عن البيت، صار أكولًا، يهتم بهندامه، هي

أيضًـا تتغـير تمامًـا كـما يتغـير تدريجيًـا. كلـما ظهـرت مريـم بطلتهـا تلـك قلبـي يفـرح، كنـت الطفـل الـذي يجـد لعبتـه المفضلـة. أنـا أيضًـا كنـت أتغير، أحلـق ذقنـي، أغـير بـدلاتي مرتـين في الأسـبوع، صرت أعـرف بالضبط متـى تطـلّ علـيّ، فأكـون في غايـة اللطـف والرّقـة والشـعرية. أترقـب دخولهـا المثـير للزوابـع الداخليـة الكامنـة، بصـدق تفرحنـي جـدًا طلّتهـا المفاجئـة في مسـاءات المدينـة، لم أتخلـص مـن وهـم التشـابه الكبـير، قلبـي يقـول هـي سـهى، بدليـل هـذا المجـيء غـير المـبرر أحيانًـا، لأسـباب تختلقهـا هـي، أتغـير عـلى إيقاعاتهـا السريعـة المدهشـة، أحـرص في كل مـرّة أن أكـون الشـخص الـذي عرفتـه وأحبتـه في المستشـفى الجامعـي، الشـخص الـذي رافقهـا إلى ثانويـة الخنسـاء لمقابلـة والدتهـا «عليـاء سـليمان» أسـتاذة الأدب العـربي، ربمـا يومهـا ازددت تعلقًـا بسـهى أكـثر مـن أي وقـت مـضى بسـبب عليـاء العراقيـة التـي أبهرتنـي بلهجتهـا الدافئـة. كل محـاولاتي بـاءت بالفشـل، مجيئهـا يذكـرني بالزمـن الـذي توقـف ذات يـوم. هـل سـأقول؟

لا. سـأقول. لا. ثمـة جـدار إسـمنتي بيننـا يمنعنـي مـن القـول. هـل هـي سـهى؟ ربمـا تعمـدت نسـياني، قـد تنتظـر منـي المبـادرة؟ مـن يـدري فيـما تفكـر هـذه الأفعـى التـي تتلـون وتتغـير.. وتتجمّـل؟

عندمـا طفـح الكيـل قلـت بـلا مقدمـات أو تفكـير جـديّ في عواقـب القـول:

- «أهلًا سهى».

كأنها لم تسمع، أو لم تسمع حقًا، واصلتُ متحديًا صمتها اللاذع:

- «تفضلي سهى كيف هو علاوة اليوم؟»

- «سهى؟ هل نسيت اسمي بهذه السرعة يا دكتور؟»

- «لم أنس، وما نسيتك لحظة، صدقيني سهى، رحيلك المفاجئ دمرني، بعثرني».

بهتت لحظات، هي تستمع بشكل جيد لكلماتي الساخنة، كألسنة اللهب في فضاء الغرفة. أقف غير مهتم باصفرار وجهها وجفاف شفتيها، إذ لم تجد ما تقوله سوى الصمت المكثف بحثًا عن مخرج يليق بسمعتي كطبيب صارم يحترم جدًا مواعيده ومرضاه، كيف نزلت بهذا الشكل إلى الحضيض؟

أسمع صوتها أخيرًا يدق مساميره في نعشي:

- «صدقني يا دكتور هشام، أنا لست سهى، أنا مريم التّعيسة».

لم أتحمل وقع كلماتها على كياني الهشّ، كأني أردت تكذيبها أو صفعها، أضافت باكية:

- «ممكن أشبه سهى، ممكن جدًا، أصدقك، لكني في نهاية الأمر مريم زوجة علاوة.. صدقني، آسفة سيدي إن سببت لك كل هذا الألم».

اعتذرت بخجل، كلمة الاعتذار غير كافية، كنت محرجًا وعاريًا وأنا قد فقدت أهم سرّ في حياتي، القصة التي كنت أخفيها في مكان قصي من ذاكرتي. شعرت بوعكة مفاجئة أصابت قلبي، ذاكرتي، بفداحة الفعل الذي لم أجرؤ القيام به مذ تزوجت عبير ذات صيف. لكن انسياب

الصور وماضي الشخصي طيلة أيام، بل كلما دخلت مريم/سهى يسبقها عطرها بمئات الأمتار تجدني أتهيأ، لإيجاد حل لأهدم الجدار الذي بيننا، كنت أترقب بشغف خطوتها الأخيرة فتجيء إلى عيادتي تصنع مفاجأة تليق بقصتنا الطويلة المعقدة المنتهية في زمن لم نكن فيه طرفًا في تعقيده أو إدمائه بذاك الشكل الذي اختارته والدتها للثأر من كرامتها كعراقية أحست بإهانة زوجها الجزائري، أيام قبل رحيلها المفاجئ، حدثتني عن خلاف نشب فجأة بين والديها، استعملت السيدة علياء كل ذخائرها لإصلاح ما أفسده الزوج، لم تفلح علياء بقدر ما آلمها تهوره ومحاولة ضربها.. أو يدخل بيت الزوجية وهو ثمل يتمادى في إذلال علياء أمام سهى، «صوته يصل إلى سلم العمارة أكثر من مرّة». تقول باكية.

لفترة أترقب مريم لتقول إن ظروفها منعتها عن القول والفعل، أترقب بصبر لتقول قولتها الأخيرة القاتلة بهدوئها:

«لست سهى».

في الحقيقة، كان لمريم أيضًا الدور الكبير في التحول الذي انتابني فجأة، صرت أفضفض معها في موضوع يتعلق بالعواطف والخيانة والرسائل واللقاءات السرية، تجاوبت معها بشكل علمي عن كل التحولات العميقة التي يعيشها زوجها بعد تماثله للشفاء النسبي، وتلك العلاقة المرتبكة معها بنومه المبكر، والتصرفات الواجب القيام بها لاسترجاع العلاقة الحميمة بينهما، الأمر ليس سهلًا أقول. بعد إفشاء السرّ ظننت أنها لن تعود إلى عيادتي رغم محاولتي في ترميم الضرر بتبادل كلمات

الاعتذار الشاحبة. خرجت من العيادة مثقلًا بالوجع، تمشيت طويلًا في أزقة المدينة، أفكر في عبير مخافة أن تكتشف زلتي الأولى هذه في فتح دفتر الذكريات، تمنيت ألا تعود مريم ثانية إلى عيادتي، يكفيني هذا الألم المضاعف الذي سببه تسرعي في فتح دفاتري القديمة السريّة الخطيرة.

خاب ظني بعودتها فعلًا بعد أسبوع فقط، في نفس الميعاد بنفس الكراهية التي تبادلها زبيدة. بالغتُ في الترحيب بها، كانت مرتاحة جدًا لتحرري من واجب التحفظ نهائيا، لا تجد حرجًا في مساءلتي عن سهى، هل هي طويلة مثلي؟ هل هي أجمل؟ لماذا لم تتزوجا؟ هل الفراق مؤلم بحق يا دكتور؟

في المساءات التي تجيء بلا سبب حقيقي، تزداد زبيدة تذمرًا من هذه الزيارات المجانية، قرأت مرارًا في وجهها اعتراضها المبدئي من استقبالي غير المبرر لها؟ لم أجد تفسيرًا لردّة فعلها كلما جاءت مريم، ربما بسبب التحول الجميل في هندام مريم وفي تسريحة شعرها وحركاتها غير البريئة التي تقرأها الممرضة بعين امرأة لا تخدعها تصرفات أنثى ناضجة مكتملة، تعرف بالضبط ما تريده مني. أبرر ذلك بضرورة متابعة حالة زوجها التي لم تعرف الاستقرار بعد، وليس من اللباقة رفض أي شخص يقصدنا يا زبيدة، أليس كذلك؟

عندما تدخل قاعة الفحص، لا تهتم بتذمر الممرضة أو امتعاضها الذي لا تخفيه مطلقًا، بل كانت تحتقر زبيدة، بمنظرها الذكوري الخشن غير المتناسق بلباسها أو مكياجها القبيح الذي يقضي عاجلًا أو آجلًا

على ما تبقى من أنوثتها. ترمي مريم فولارها الحريري فوق الكرسي المجاور، تبدأ محادثتي كالعادة عن زوجها، عن الأخ الكبير الذي يتمادى كالعادة ولا يقيم وزنًا لمشاعر علاوة. ثم فاجأتني في إحدى المرات أو الأصح جاءت تشكو بشكل صريح خمود حصان زوجها، رغم محاولاتها الكثيرة في تحريك مشاعره، بتدليك كامل جسده، تبدأ من قدميه مرورًا بصرّته ثم وجهه، لكنه سرعان ما يرفض وينقلب على جنبه الأيسر، فيغط في نوم عميق أو يتناوم هروبًا مني. هل لا يزال يكرهني؟ هل من حلّ نهائي يا هشام؟

تضيف بقلق:

- «صحيح أن زوجي تماثل إلى الشفاء، لكنه ينام باكرًا، هل من حلّ آخر؟ أنت تعرف يا دكتور. أنا امرأة أريد أن أحمل جنينًا ككل النساء، أن أشعر بأنوثتي وسخائي وأستمتع بحياتي وبجسدي الذي بدأ يضمر. إلى متى أستطيع الصبر؟ أحيانًا أفكر في الفرار من البيت لأقول لعائلته وعائلتي «طز» فيكم جميعًا، لكنني أتراجع في آخر لحظة. إلى الآن لا أعرف لماذا بقيت واصطبرت؟ هل تفهمني يا هشام؟

قلت بحرارة صادقة:

- «أتفهم طبعًا، علاوة يمر بمرحلة حساسة جدًا، وانتقالية وصعبة في نفس الوقت، أي خطأ يدمر كل الذي فعلناه، كل التقدم الذي أحرزناه من قبل، عليك أن تتفهمي توتره، غضبه السريع، نومه المبكر، عدم رغبته فيك، صدقيني هذا أمر طبيعي في حالة زوجك، لكنه سيعود

إليك.. إن ساعدته بحبك، لا بعطفك عليه كإنسان مريض، هذا مرفوض تمامًا، الحب مفتاح مهم يا مريم، عندما تشعرين الطرف الآخر بذلك سيصله ساخنًا وسيصدقه ويعود إليك.. هذا مهم للغاية.

كانت خطبتي طويلة مملّة، فيها الكثير من الجمل التقريرية الفجّة، كنت أعرف مقدار ثرثرتي، في الأخير هي ثرثرة ليس إلا، فخمود حصان زوجها لا تحله ثرثرتي المجانية، ليس حلًا..

كم من حياة تعيشها؟ أتساءل بلسانها.

ابتسمت أخيرًا، ثم قالت:

- «وسُهى هل نسيتها؟ ألا ترى معي قلة اهتمامك بي؟»

- «أبدًا، بكل تأكيد هي من الماضي، أما أنت حاضرة، أنت أمامي بالأمس رأيتك، غدًا سأراك، تمنيت فعلًا لو كنت هي..»

كانت تستجلب قواها الداخلية وتستنفرها كأنثى جميلة، لها من لحظات الضعف الإنساني كالأخريات ولها من الهشاشة ما يكفي لتسقط ثم تقف على قدميها كأن الأمر لم يحدث. قالت بتحدٍ نادر لم أعهده فيها قبل تلك اللحظة السرمدية المغشاة بضباب خفيف يتسرب من النافذة المفتوحة على الغيم الذي غطى جبل جرجرة:

- «لنفرض أني سهى ماذا عساك تقوله لها؟ هه، أنا هي.. سهى الصغيرة أو تراني أكبر منها أو أقلها جمالًا؟»

ضحكتُ من براءتها المصطنعة وإغرائها المتعمد، كنا محاصرين

بالرصاص والموت، لم يعد لأعضائنا فسحة للاستمتاع، لم يعد لها القدرة على التمدد أو الخروج من قمقمها. لم أقل لها قط: أنا أيضًا أعاني مثل جميع مرضاي هذه الأيام، من عسر الهضم، من الأرق، من حالة ذهول مما يحدث، من خمود حصاني، أعاني مثل جميع هذه الخلائق من البؤس، من شلل الأعضاء ومن برودتها، بل اختفائها كلية من مداراتها. أنا أيضًا أسقط جوار عبير محايدًا، لا يعنيني ذاك السخاء الذي تمنحه لي من قبل، تناسيت الساعات الطوال الليلية التي أكون فيها رومانسيًا.

- «هيه... أسمعك يا رجل».

أن تحاصرك أنثى في غرفة شبه مظلمة، يحرصك فرويد من جهة وفرانز فانون في الجهة المقابلة، ووجه سهى الحاضر للتو يحثني للقول الاستثنائي لشبيهتها التي بدأت تتغلغل في مسامات الجسد. لا مفر لك سوى الأنين كعتبة لا بدّ منها ثم...

رويت لها قصة سهى من ألفها إلى يائها، من جنبات المستشفى الجامعي إلى غرف فندق الحمراء في مدينة وهران باعتبارنا مفلسين، إلى العرق الذي يغرقنا في ليالي الشتاء والربيع، هي صفحتي النقية البهية ثم تختفي فجأة ككل الأشياء الجميلة التي تفقد جمالها لسبب أو لآخر. فتفقد تلك الأمكنة الجميلة التي احتضنتك بهجتها وتراها أكثر قبحًا وعدوانية. في تلك الصبيحة وجدت قصاصة صغيرة في درج مكتبي، تقول: عزيزي هشام..

صعب أن أنقسم بين ثلاثتكم، والدي وأنت، تعرف حجم الألم الذي

سـببته أنانيـة الوالـد بعـد إقالتـه مـن الحـزب، ثـم البلـد لم يرحـم والـدتي ولم تجـد التعاطـف الـذي يليـق بأسـتاذة حالمـة ببلـد ثـوري يلتهـم فلـذات أكبـاده، قـد أعـود مـن يـدري؟

اذكرني بخير، اذكرني بخير.

-٢-

اختفاء مريم من مداراتي لشهرين له ما يبرره، بعد فشلها الذريع في إذابة الجليد الذي يحيط بجسدي وروحي، كلما اقتربت مني تتسلل عبير بيننا، تقف كحاجز حقيقي، أبحث عن أعضائي فلن أجدها، تحاول قدر استطاعتها- تحتويني بغضب، أقول لها بصدق لا أجد تفسيرًا للشلل الذي يصيبني. آخر مرة انفجرت غاضبة ثم خرجت..

إذن اختفت بعدما حركت شيئًا في قلبي باهتمامها. طغى عليّ الشوق لرؤيتها بأي وسيلة للتحدث معها في نهاية الدوام، بعد خروج الممرضة من العيادة، تجرأت لأول مرة بالاتصال بها على رقمها الخاص، ردت بسرعة البرق غير مصدقة بأني أحدثها بعد أشهر من الغياب، كانت مسرورة إذ كلماتها تتلاحق بسرعة، متسائلة هل هي في حلم أم هي في الواقع؟

- هشامي الرائع يتصل بي؟ صحيح؟

- «نعم، بالتأكيد أنا أتصل لأنك غبت بلا سبب، ثم من حقي سيدتي مريم، فقط أريد أطمئن على صحة زوجك».

ضحكت كصبية مغناجة، لم يكن في مقدوري إخفاء ارتجاف صوت المعجب. فضحتني نبراتي وارتعاشي المتتالي.

قالت:

- «هو بخير هشامي، أما أنا لست بخير، هل تريد رؤيتي؟»

- «ليكن، طبعًا إن شئت..»

- «باي إلى الغد».

جاءت كما كان متوقعًا، كانت أكثر إثارة وحضورًا، بملابسها الفاتنة، بدت مريم في وقفتها أمامي كصورة مبهرة. لم أصدق في البداية أنها هي التي تغيرت أو غيرها اللّوك الجديد. حدثتني عن عملها الجديد، في محل لبيع الأقمشة، أبديتُ تذمري بارتباطها بمؤسسة مشبوهة وبصاحبها. ضحكت من غيرتي الواضحة، وأسعدتها كثيرًا. أضافت بدلال جليّ:

- «لو تدري يا هشامي كيف يعاملني جعفر؟ لم أتصور ذلك إطلاقًا، يعاملني باحترام كبير..هيه..»

- «فقط؟»

- «آه فقط، أيها الغيور».

- «هل تتصور أن خروجي للعمل كان سهلًا؟ مريم، التي هي أنا، تزوجت كل أفراد العائلة، زوجي غير المهتم، أخوه الأكبر، صار يتحكم في تحكمًا.. لا شغل له سوى مريم، لولا الخوف لقلت لزوجته إنه يـ... يريدني بأي شكل، هه، ربما خروجي للعمل حلّ لينساني نهائيًا، أو يخلق مشكلة حقيقية ويتركني في سلام. تعبت منه يا هشام..

صمتت، تلعب بتلابيب تنورتها القصيرة، ترفعها شيئًا فشيئًا، ثم تنسحب إلى الكنبة، تضطجع بغير استئذان، أتابع المشهد كوني طبيبًا ألف الحركة التي يقوم بها مرضاي التعساء.

- «ألا تسمعني يا هشام، أنا أيضًا أعاني».

أتعثر في مكاني، ثم أستجمع قواي لأسمع بوحها حقيقة، أجلس خلف رأسها، مانحًا لشخصي فسحة تأمل انثناءات الجسد الرشيق، كانت أمامي، وصدرها يرتفع، حينها كأنها أحست بتوتر فعلي في نبضات القلب، رفعت يدها لتلامس يدي، تأخذه على أقل من مهل إلى ثغرها، تقبله، تضع راحة يدي على بطنها، تسحبه ببطء نحو قارتها الجنوبية الأكثر حرارة. كانت شبه غائبة.

لم تعد تأتي بعد ذلك، غيرت رقم هاتفها، لم أتجرأ الذهاب إلى المحل الكبير الذي تديره بوصفها مسؤولة عن المبيعات واستقبال السلع والتفاوض، إلى غير ذلك من المهام الموكلة لها في غضون شهرين، بالإضافة إلى السيارة التي تقلها من البيت صباحًا وتعيدها مساءً. كدت أنسى مهامي الحقيقية في عيادة بدأت تكبر رغم الهنات الصغيرة، لا أشك أبدًا في تكتم زبيدة وفي تفانيها، رغم محاولات عبير في استنطاقها مرات في الأسبوع، في كلّ مرة تدعوها إلى البيت في مساءلة شبه روتينية عن أهم الزبائن، عن تصرفاتهم، عن نجاحي وعلاقاتي مع الجميع بما فيهم المجانين الفعليين، إذْ تزعم عبير أنها تريد معرفة كل شيء عني، مخافة من إصابتي بمكروه. تقول للمرضة:

«زوجي صار يخفي بعض الأمور، أثق فيك صديقتي العزيزة».

لا تبخل زوجتي بالهدايا التي تقدمها لزبيدة بمناسبة أو بغيرها، كانت عينها الثالثة داخل العيادة، من جهتي أثق في احترافية الممرضة، شخصيًا أغدق عليها بمال وفير، وأجاملها لأنها تتقن عملها، كنت أرشيها بعد كل كتمان حقيقي، ربما تفهمت اللعبة وصارت تتقنها أو هو العقد الذي بيننا دون أن نكتبه أو يقوله أحدنا للآخر، هل هي خيانة؟ ثم ليست رشوة في نهاية الأمر، ما دامت زبيدة بالفعل تقدم خدمات إضافية للعيادة بإشهارها اليومي لكل ما نقوم به، هي تستغل الأفراح والمآتم للتبشير للعهد الجديد الذي تعيشه الإنسانية بفضل علم النفس والتحليل النفسي والسريري. بدليل تلك الأيام من شهر مارس ١٩٩٧ أخبرتني بحالة مرضية ستأتي قريبًا إلى العيادة، التقت فجأة بزوجة المريض... حينها لم تذكر اسم «باية» لكنها أصرّت على أنها صديقة محترمة، وعدتها بزيارة العيادة رفقة زوجها المريض فحالته معقدة جدًا، عانت لسنوات من هواجسه، أوصتني زبيدة خيرًا بالمريض. طبعًا ليست هي المرة الأولى التي يقصدني مرضى المدينة أو القرى المجاورة بفضل الممرضة المتفانية في عملها.

قلت لها: «أوكي، أمرك سيدتي».

***

دخل سفيان عبد الجليل أول مرة عيادتي مطأطئ الرأس، واضعًا يده اليسرى على جبهته، متحاشيًا النظر في وجهي، في الصّورتين المعلقتين على الجدار المقابل، صورة «فرانز فانون» وصورة ثانية نصب عينيه لـ(سيقموند فرويد). لم أره من قبل، يبدو مسالمًا متخلقًا، علامات الخوف جلية في سحنة وجهه وفي مظهره، في ظله، مستسلمًا ليد زوجته «باية» التي تقوده حيث تشاء، وزبيدة كانت سعيدة بالفعل، قالت أخيرًا:

- «هاهي صديقتي يا دكتور وهذا زوجها».

- «تفضلا، مرحبًا».

جلس على الكرسي الخشبي كتلميذ مطيع، هذا الذي أمامي إما قاتل أو مقتول، كان في صورة مجرم يدعي البراءة، يستجدي العطف من حوله. تذكرت حينها آخر مقولات الأستاذ الدكتور «عبد الرزاق س» وهو يوصينا خيرًا بالمرضى، تأمل في وجوهنا مليًا ثم أردف بصوته الواهن:

- «في آخر القول أشير إلى نقطة في غاية الأهمية أعزائي الطلبة، بعد لحظات تتخرجون، بالتأكيد، تبدؤون حياتكم المهنية بكثير من المفاجآت، تشككون أو تقللون من هذه الظاهرة أو تلك، أحيانًا تنتابكم هستيريا من الضحك، أحيانًا تعجزون في الفصل بين مريض حقيقي ومريض يتوهم، وعليه، في هذه النقطة تحديدًا، وأنتم داخل حجرات الفحص عليكم أن تجدوا الطريقة المثلى للتفريق بين الحالتين، من خلال خبرات أطباء مثلكم توصلوا إلى فاصل مهم يجب أن تضعوه نصب أعينكم،

عنـد معاينتكـم لأي مريـض، اسـألوه عـن موضـع الألم، إذا أشـار بيـده ووضعـه في موضـع الألم بالضبط فاعلـم أنـه مريـض حقيقـي أمـا إذا اكتفـى بالإشـارة فقـط دون اللمـس فـذاك وهـم «إذن أنـا أمـام مريـض حقيقـي، عينـاه التصقتـا بأرضيـة الغرفـة».

وضعـت زوجتـه الملـف الطبـي فـوق المكتـب، تحدثـتُ معهـا بكلـمات روتينيـة كالعـادة عـن صحتهـا وأخبـار البلـد، مـن أيـن قدمـوا؟

قالت:

- «مـن مدينـة (ب) وهـي ليسـت بعيـدة عـن البويـرة، مسـافة ربـع سـاعة.

- «مرحبًا سيدتي».

حاولـت إخفـاء توترهـا، بطبعهـا تخفـي كل عواطفهـا، ربمـا هـذا هـو السـبب الرئيـس في عـدم تفهمـه لهـا، وتطـور قلقـه إزاء تصرفاتهـا الطبيعيـة في الغالـب. شـكرتهما لأنهـما اختـارا عيـادتي ثـم طلبـتُ مـن الممرضـة مرافقـة بايـة إلى قاعـة الانتظـار.

هممـتُ بالكتابـة عـلى كناشـة جديـدة، في الوقـت الـذي فتحـت ملفـه الطبـي، وصفـات طبيـة تعـود تواريخهـا إلى سـنتي ١٩٩٤ و١٩٩٥ ثـم توقـف عـن المتابعـة، وصفـات عديـدة موقعـة بأسـماء أطبـاء أعرفهـم شـخصيًا والبعـض الآخـر أعرفهـم بالاسـم فقـط. إجـمالًا اسـتطعت تحديـد الفضـاء الـذي يهيـم فيـه «سـفيان عبـد الجليـل»، هـي ظاهـرة شـديدة الخصوصيـة

يعـاني منهـا المبدعـون بشـكل خـاص، هـو نـوع مـن التعـالي ثـم النـزول المفاجـئ أو السـقوط الحـر، والإفـراط في الأنـا وإلغـاء الآخـر مـن محيطهـم الاجتماعـي. عمومًـا هـو شـعور بالعظمـة بأقـل جهـد يقومـون بـه، إلى غـير ذلـك مـن الحـالات الكثـيرة التـي قـرأتُ عنهـا في مجـلّات متخصصـة وفي مسـاري الـدراسي والتكوينـي، لكنهـا ليسـت بالخطـيرة، بقـدر مـا هـي خطـيرة عـلى المريـض نفسـه، فقابليـة الانتحـار مرتفعـة جـدًا بـين هـؤلاء المـرضى بالإضافـة إلى نـوع آخـر مـن المضاعفـات التـي تعقـب الحالـة التـي يعـاني منهـا سـفيان وهـي مـا يشـبه الانتحـار، كالدخـول في عزلـة أبديـة مـن فـرط الاكتئـاب الشـديد.

- «هه سيد سفيان كيف الحال؟»

- «بخير، هل تعرفني؟» سألني بانتشاء.

- «للأسـف لم أعرفـك مـن قبـل، بالطبـع حدثتنـي الممرضـة عنـك لكنـي أريـد أن تعرّفنـي بنفسـك لـو سـمحت».

- «هل قرأت اسمي إذن في جريدة ما؟»

- «لا، لماذا أقرأ اسمك في جريدة؟»

- «آه جيد، لكن لماذا قلت سيد سفيان؟»

- «ببساطة لأن اسمك مدوّن في الوصفات، هاهي أمامي».

- «جيد».

يبـدو مـن نطقـه وحديثـه بفخامـة مـن النـوع الـذي يحتفـي باسـمه ومكانتـه، بـدت نرجسـيته العاليـة مـن خـلال ربطـة عنـق وتأنقـه المبالـغ فيـه.

أضفتُ:

- «لمـاذا جئـت إليّ سـيد سـفيان، بمعنـى هـل تريـد أن أسـمعك أو أنـك مجـبر عـلى المجـيء مثـلًا، بمعنـى آخـر: هـل زوجتـك أجبرتـك؟»

- «بالعكـس سـيد هشـام، انتظـرت هـذه الفرصـة طويـلًا، أنـا متعـب جـدًا، بايـة زوجتـي متعبـة أيضًـا، بالتأكيـد جئـت بمحـض إرادتي، هـي التـي اقترحـت عـليّ اسـمك، لا أذكـر جيـدًا، كلّ مـا في الأمـر قبلـتُ... هـا قـد جئتـك..»

كانـت المرحلـة الأولى مقبولـة، أمرتـه بالصعـود إلى السريـر، كان متثاقـلًا، يبـدو يائسًـا مـن النـوم عـلى سريـر الفحـص وجلسـات البـوح، هـذا طبيعـي مـع تجاربـه السـابقة، في نفـس الوقـت كنـت واثقًـا مـن رغبتـه الكبـيرة في التخلـص مـن تخوفاتـه. تمـدد ويـده حـول عينيـه. أخـذ نفسًـا عميقًـا أكـثر مـن مـرة. في الوقـت الـذي جلسـتُ خلـف الأريكـة، منـذ البدايـة أردت إيحـاءه بغيـابي وحضـوري في نفـس الوقـت. هـي المرحلـة الأصعـب في نظري، لجعـل المريـض في حالـة تسـمح لـه بالتداعـي.

سألته:

- «لاحظـت أنـك توقفـت عـن العـلاج، هـل مـن تفسـير، أم أنـك شـعرت

بالتحسن ثم عاودك المرض من جديد؟»

- «يئست من الشفاء، زوجتي أيضًا يئست، لكن هأنذا، عدت، ممرضتك أقنعت باية طالما حدثتها عن قدراتك ومواهبك، أكون صادقًا معك، لم أشأ المجيء إليك، لكن زوجتي أصرّت وحاولت إقناعي بخوض تجربة جديدة من العلاج. بيني وبينك أريد فقط أن أعود إلى الكتابة، لم يعد لي الوقت الكافي لهوامش زائدة، ومعارك سخيفة. أريد فقط العودة بسرعة، لا وقت لديّ يا دكتور».

- «هه أنت في حالة جيدة سيد سفيان، ماذا يمنعك من فعل ما تريد، كالكتابة مثلًا، ثم الكتابة بحد ذاتها علاج، قد لا تحتاج إليّ مستقبلًا، أشجعك سيد سفيان، لا أحد يستطيع منعك من الكتابة، هل توافقني الرأي؟»

- «لا أعرف، هذا ممكن، قد يكون الأمر صحيحًا، الكتابة بالفعل علاج، أحسنت يا دكتور، لكن في وضعي الأمر مختلف تمامًا، الأدق ثمة قيود «وهمية» تكبّلني، أعرف أنها أوهام لا غير، لكنها تمنعني عن الكتابة، محاولاتي باءت بالفشل ولم يصدقني أحد، لعلي فشلت في حكي الوقائع بشكل سليم ومنطقي، تشابكت خيوط الحكاية، ازدادت تعقيدًا كلما حاولت شرح تلك الملابسات، هي الحقيقة يا سيدي، مأساتي تتلخص في أشباح تقلقني وتعذبني ليلًا، زوار كثيرون يهددونني لو فعلت مجددًا، زوجتي نفسها لم تعد تثق في قدراتي الكتابية».

- «سيد سفيان ممكن تأخذ راحتك وتقول سبب هذا الرعب،

لنفـترض أني لسـت هنـا، وأنـت تواجـه هـذه الصـورة (سـيقموند فرويـد) هـل تعرفـه أو يذكـرك بـشيء؟»

- «طبعًا أعرفه، قبل كتابتي للرواية قرأت له، ليس كثيرًا على كل..»

- «أنا سعيد بتجاوبك سيد سفيان، هل قلت أنك كتبت رواية؟»

- «نعـم، عنوانهـا «حرائـر» أسـتغرب كيـف لم تسـمع باسـمي قبـل اليـوم أو بالروايـة التـي ارتبطـت باسـمي كوشـم، كعـار يلاحقنـي إلى اليـوم؟ أو أنـك تتجاهـل ذلـك سـدى؟»

- «آسـف جـدًا، لم أقرأهـا، لكنـي أعـدك بقراءتهـا لاحقًـا، وقـد أشـاركك رأيـي، أنـا أيضًـا أفكـر في كتابـة روايـة، قـل إن شـئت عمـلًا يخلـد هـذه المدينـة الجميلـة».

همس كأنه يخفي انزعاجه قائلًا:

- «لا تقرأها.. أرجوك، انس أمر الرواية».

ليـس كل مـا يقولـه مريـض متعـب هـو الحقيقـة بعينهـا، دائمًـا ينتابنـا شـك في أول جلسـة والجلسـات اللاحقـة. ثمـة احتـمالات ندرسـها لحـصر المشـكلة الأسـاس فكـم مـن مريـض يكـذب إلى أن يصـدق كذبـه! بالتـالي يقـلّ اسـتغرابنا بقـدر مـا تكـثر الأسـئلة لمحـاصرة الحالـة.

- «هل يمكن أعرف سبب انزعاجك؟»

- «لم أنزعـج، قلـت لـك الروايـة مشـوّهة، بمعنـى أدقّ لم أكتبهـا، ولا

تمثلني في شيء، ببساطة لأنها ليست لي. هي سبب انهياري، هي بالتأكيد التي جعلتني نصف إنسان ونصف عاقل، بسببها زرت عددًا كبيرًا من العيادات، صعب أن يتفهم الواحد هذا الموضوع، أنا سفيان عبد الجليل، بالفعل كتبت سيرة ذاتية موسومة بحرائر، لم تكتمل أحداثها في واقع الأمر، أمّا الأخرى تحمل اسمي فقط: بقلم سفيان عبد الجليل، لا غير. بعد نشرها بأيام قليلة، فقدتُ احترام الجميع، فقدت ثقة باية، جيراني، حتى أصدقائي صاروا يتحاشون ملاقاتي، لم يصدقوا أني بريء، الرواية التي كتبتها -الأصح- المخطوط الذي عنونته بـ»حرائر« هو يوميات شخص كان في دوّامة، كان ممزقًا بين واجبه العائلي كعريس جديد وبين واجبه كشاب عليه أن يتفرغ للمجهود الوطني قصد تحرير البلد من عصابة اللصوص. النص في الأخير هو مزيج بين السيرة والفنتازيا.

«حرائر» هو المخطوط الذي صادره رجال الدرك بعد المظاهرات التي عرفتها مدينة (ب) أمسية التاسع من أكتوبر ١٩٨٨. هدأت الأوضاع، أو بُرمج لها الهدوء، نسينا ما حدث لأن الآتي فيما بعد أكبر وأعمق مما حدث، لاسيما بعد خطاب رئيس الجمهورية ليلة العاشر من شهر أكتوبر، لنقل كان الخطاب مغايرًا ومفاجئًا لليسار والإسلاميين والمشككين في ثورة شباب طالبوا بالمزيد من الحرية. بعد ذلك بثلاث سنوات أو أكثر بقليل، تفاجأتُ بنشر الرواية، وهي مشوهة بطريقة بشعة وغير أخلاقية، هي مؤامرة حقيقة باستخدام اسمي، وُزّعت المشوّهة بشكل سريع ومنقطع النظير، قرئت على المنابر مرارًا. الأمر مخيف سيد

هشام، كما ترى، هي سبب مأساتي صدقني».

- «طيب، ثمة أشباح أو زوار الليل يزعجونك ليلًا، أو كوابيس كما عشتها بالتفصيل، مع ذلك، لا أرى شيئًا يستحق فعلًا كل هذا الهلع ثم الانهيار التام سيد سفيان، إلى الآن في حياتي المهنية لم أصادف كاتبًا أو قرأت شيئًا من هذا القبيل: رواية تسبب في انهيار كاتبها! ثم لم أفهم كيف شوّهت إن نشرت باسمك وتحمل الأفكار التي تخيلتها وكتبتها من قبل؟ هل من توضيح أكثر، أم أنا مخطئ صديقي سفيان؟»

سكتَ للحظات، كانت ثقيلة وباردة. حاول النهوض من مكانه مدعيًا أنه يعود في يوم آخر. فهمت من حركته المفاجئة تلك غضبه، وغير مقتنع تمامًا بالفكرة والسؤال، كأن في نبراتي الجافة تحمل التّشكيك المبدئي للقصة المحبوكة بإتقان، بالفعل، تبدو لي مفبركة على الأرجح، هو الشخص الحكّاء الماهر مذ دخل العيادة. القادر على إلهائك بأسلوبه الشيق الذي يأخذك حيث يشاء هذا مؤكد، بدليل محاولته الخروج مبديًا عدم تحمسه للإجابة على أسئلتي التي اعتقدت أنها في الصميم، ليس لي غيرها في تلك اللحظة. اعتدل في جلسته، ترجيته ألا يخرج، قلت:

- «بالطبع لا أمنعك من الخروج، لكن أريد سماعك وبصدق، يهمني أمر الأشباح ومسودة حرائر.. ربما لم أسألك بالشكل الذي يريحك سيد سفيان، لنقل أني أخطأت في طرح السؤال المناسب، ربما لم أقدّر جيدًا معاناتك، تجاوز زلتي هذه لو سمحت للمرة الأخيرة».

عاد إلى وضعه الأول ممددًا، باختلاف بسيط، بفتح عينيه، محدقًا

فيّ، في تحدٍّ بيّن لي ولموهبتي التي سمع عنها عن طريق زبيدة التي استعملت كل أساليبها لإطالة عمر العيادة في «شارع ستراسبورغ».

قال أخيرًا:

- «هل تعرف أنك مثلهم جميعًا يا سيدي؟ لم تختلف في شيء عن الأطباء الذين زرتهم من قبل، نفس الشّكوك، نفس الأسئلة الباهتة الوقحة، عيونكم تفضحكم، هل تظن مجيئي إليك من أجل صك الغفران وأتباهى به أو أختفي خلفه كتستر على فعلتي الدنيئة في حق أشخاص أحبهم؟ صحيح، أنا منهار لكني لست مجنونًا بالكامل، ولست ضعيفًا بالمطلق. هل تعرف كم آذيتني الآن وأنت غير متحمس لسماعي كما يجب؟ أتعرف لماذا تخليت عن الأطباء الذين زرتهم من قبل؟ هل تدرك حجم الألم الذي تسببه لي هذه الشكوك التي تراودكم جميعًا؟ هل تدرك يا سيدي أني دخلت المرحلة الأخيرة من المرض، ربما سأشهدك على انتحاري هذه اللحظة أو بعد قليل؟»

- سـ.....

- «أرجوك... لا تقاطعني. المشكلة أكبر بكثير من نشر رواية مشوّهة، المشكلة أنك تحمل وزر عمل أنت بريء منه... أوف. هل تريد سماعي أم أسمع شكوكك ووصفات جاهزة؟ أعرف في نهاية الأمر أنك ستكتب الوصفة والأدوية التي تدمّر هيجاني القادم الذي أدخله بعد أيام. حتى باية رافقتني في هذا الوقت بالذات احترازًا لما هو قادم، أعرف يا دكتور أني أتهيّج قريبًا، ثم أعنفها، وأكيل كل الذين أعرفهم الكثير

من السخط والشتم، أثرثر أضعاف الصمت الذي لازمني طيلة شهرين. أعرف نفسي جيدًا، تأقلمت مع المرض إلى درجة التحكم أحيانًا في هيجاني وفي تصرفاتي، لكن الشيء الوحيد الذي لم أتجاوزه مطلقًا فعل الكتابة.

لا يهمني إن صدقتم حكايتي أو لا، يهمني فقط عودتي إلى الكتابة، إلى عالمي الخاص، لا أعرف عملًا آخر غير الكتابة، أعرف أنك تقول ماذا يمنعك؟ أتعرف أن مرضي هذا أو حالتي جعلتني أقرأ كل المقالات والكتب التي تناولتها؟ ربما سأفاجئك بعناوين لم تقرأها أنت شخصيًا. أنبهك كي تساعدني للتخلص من هامش الخوف الذي عشّش في دواخلي.. لا أحد يصدق أني بريء وهذا غير مهم، وأن الرواية المنشورة ليست لي، لم يصدق أحدهم أن رجال الدرك بالفعل أوقفوني عند نقطة تفتيش منعزلة، وصادروا المخطوط لدواعي أمنية بعد مظاهرات الثالث من شهر أكتوبر ثم عمّت أرجاء الوطن في الخامس من أكتوبر ١٩٨٨. هو المخطوط الذي أنهيته ليلة السابع من شهر أكتوبر وأوقفوني أمسية التاسع من نفس الشهر. من بين أسئلة البعض المزعجة التي تسبب لي أرقًا بالفعل:

- من أنت حتى تُخيف النظام بكلماتك، بهذيانك، بأوراقك التي بلغت المائة صفحة ليلة المصادرة، المكتوبة بخط اليد؟ وقال آخر: لنفترض أن ذلك صحيح وصودر المخطوط ونُقل إلى القيادة العليا في البلاد، لِمَ تتعرض روايتك للتشويه وتنشر باسمك؟ آخر يقول ساخرًا:

لماذا أنت بالذات؟ للأسف، لا أملك إجابات تقنعهم. فأصمت، أتوارى عن الأنظار، أبحث مجددًا عن مسودات لأبرئ ساحتي، أثير في البيت صراخًا وثورة غير مجدية، كنت أقول لزوجتي المنهارة بسبب ما كتبته عنها تحديدًا:

- «صدقيني باية، كلها ترهات هي لا تمثلني..» إلى آخر القول، بالكاد تسمع خطابي المبتذل، المفكّك، تكتفي بالذهول من الوصف غير اللائق لعلاقة قد تكون وهمية لم تعشها مطلقًا قبل زواجنا. ثم وصف دقيق لعلاقة حميمة كأن الكاتب الشبح تسلل ليلًا حيث نتمرغ من فرط الحرارة.

في الليل، يفترسني الحزن، من تلك التصرفات التي تبديها زوجتي كأنها أصيبت برصاصة قاتلة، تتحرك في الغرفة كالجريحة، تترقب أدنى حركة للانقضاض عليّ أو علينا جميعًا. دارت كاللبؤة دورة كاملة وأنا أتصنع الهدوء المزيف. في وقت أبحث بصدق عن مسوداتي القديمة أستنجد بوالدتي لتبحث معي عن النسخة الأولى، كانت الأم تجرّ جسدها النحيل بحثًا في زوايا البيت ركنًا ركنًا. لم تجد لها أثرًا. أعرف تمامًا أن بعض الأوراق التي كتبتها بيدي هي في مكان ما في أركان البيت لكن من أين ومن تعمد إساءتي بهذا الشكل؟

كانت باية تبتلع دموعها وغضبها، كلما رأتني أتحايل على فتح الملف لأستحلفها بالله، تتوارى عن أنظاري. رغم أنها الوحيدة التي تعلم بأمر التوقيف لساعات وأنهيَ الموقف بمصادرة يومياتي التي عنونتها مؤقتًا

بـ«حرائـر». كانـت الوحيـدة التـي تسـترق النظـر إلى مسـوداتي، رغـم تشـاؤمي مـن تلصصهـا الـذي لا أحبـه، نعـم قـرأتْ معظـم الصفحـات قبـل مصادرتهـا ببضعـة أيـام، بفضـول أنثـوي قادهـا إلى كـراسي الأزرق، هـي فعلـت ذلـك بالطبـع حرصًـا عـلى العلاقـة الجديـدة وهـي زوجـة شـابة، وعـلى أمنهـا، هـل شـككت أني كنـت أكتـب في مـكان آخـر، في المقهـى مثـلًا؟

تلـك الليلـة رويـت لهـا الموقـف بالكامـل، كنـت مندهشًـا مـن تصرفـات رجـال الأمـن ورويـت لهـا الحـادث بأمانـة شـديدة مـع حرقتـي لتعميـق البعـد الدرامـي في الموضـوع، صحيـح كانـت تنظـر إليّ باسـتغراب، كأني أروي لهـا فيلـمًا هنديًـا، تعـرف جيـدًا أني مـن هـواة الأفـلام الهنديـة في تلـك الفـترة بالـذات، سردي المتواصـل المتدفـق، وصفـي للحـادث بتلـك الدقـة المتناهيـة جعلهـا تعتقـد فعـلًا أني مهـووس بالثرثـرة «عندمـا أوقفـوني رغـم أني أحمـل محفظـة جلديـة كأسـتاذ في أول المشـوار، تعمـدت السّـير في اتجـاه الحاجـز الأمنـي، كانـوا كـثرًا منتشريـن عـلى جنبـات الطريـق الوطنـي، بعضهـم فـوق مركباتهـم الخـضراء المتأهبـة، والبعـض الآخـر عـلى السـطوح. طلـب منـي أحدهـم التوقـف، ثـم أوراقـي الثبوتيـة، أمـا الآخـر الطويـل أخـذ مـن يـدي محفظتـي، فتحهـا بغـير اسـتئذان: كـراس يومـي، مذكـرات تحضـير، أقـلام، جريـدة، كتـاب لعبـد القـادر الشـاوي اسـتعرته مـن مكتبـة البلديـة، أخـيرًا ملفـي الخـاص، روايتـي الأولى، كتبـت بخـط جميـل عنوانهـا وتحتهـا مبـاشرة «مذكـرات» تقليـدًا لكتـاب مولـود فرعـون الموسـوم باليوميـات، أو خيّـل لي في اللحظـة الأولى أني بصـدد كتابـة مذكـرات مدينـة تشـتعل. أمـرني الـدّركي

الشّـاب مرافقتـه حيـث يجلـس القائـد داخـل مركبـة رباعيـة الدفـع، أجـدُ «راس الكيلـو» يمـلأ الكـرسي الجلـدي بجـوار كـرسي القيـادة والهاتـف الخلـوي في يـده اليـسرى. يسـتلم الملـف، يقـرأ نوايـاي الخبيثـة، يمـرر الصفحـات كأنـه منظـار حديـث الصنـع. رماهـا أخـيرًا في صنـدوق السـيارة الداخـلي، حـرر وصـل اسـتلام بسـيط قائـلًا: «سي سـفيان عبـد الجليـل» أشـمّ رائحـة نتنـة في مذكراتـك؛ لـذا سـنحتفظ بهـا لأيـام ثـم نقـرر، إليـك الوصـل. نحـن سـنتصل بـك. هيـا تحـرك. أتمنـى أن لا علاقـة لـك بالمتظاهريـن؟ هيـا..

قلـت هـذا بالضبـط لزوجتـي في ليلـة التاسـع مـن شـهر أكتوبـر، قلـت عـلى سـبيل الأمنيـات: بالتأكيـد قريبًـا يعيـدون لي الكـراس يـا بايـة، أشـعر حقًـا أنهـا روايـة مهمـة لعلهـا تنقـذني مـن هـذا الشـقاء، ألم أقـل لـك بـأني سـأكتب نصًـا يليـق بقصتنـا؟

تحـدق في وجهـي، هـل كانـت تـراني أم مـاذا كانـت تـراه لحظتئـذ حيـث انخـرط في الحـكي والخيـال والتبعـثر عـلى السريـر إلى أن يسرقهـا النـوم مـن خيـالاتي التـي تتلاحـق. في سـاعات الليـل بعـد مصـادرة المخطـوط، كنـت لا أخفـي انزعاجـي مـن ذاك المصـير، في سرّي أقـول: هـي بالفعـل نذيـر شـؤم. أقصدهـا للأسـف.

مـرّ أسـبوع، أسـبوعان، ثلاثـة أسـابيع، هـدأت الأوضـاع في مدينـة «ب» وفي الجزائـر العاصمـة، سرح بعـض المعتقلـين مـن السـجون، الوضـع حقًـا مشـجع بعـد خطـاب الرئيـس الشـاذلي بـن جديـد، نقاشـات علنيـة عـن التّحـول التدريجـي مـن الأحاديـة السياسـية إلى التعدديـة الحزبيـة، مـع

شكوك مناضلين سريين، سرعان ما تبدد الخوف بعودة زعماء منفيين لسنوات كالمناضل الكبير حسين آيت أحمد، وأحمد بن بلة، كان بوسعنا أن نسمع هؤلاء يتحدثون في القناة الوحيدة كل ليلة عن نضالهم الكبير لتحرير البلاد، لكن الجهاد الأكبر لم يبدأ بعد. الأمر كان مثاليًا، كنا نحلم في وضح النهار، بإمكاننا أن نقف أمام رجال الشرطة والدرك صارخين بأعلى أصواتنا: «تحيا الحرية، نحن أحرار...» إلى غيرها من شعارات فقدت بريقها مع التكرار الممل، كان رجال الشرطة يتحكمون في أعصابهم أمام تمادي البعض منا، فعلًا لا يتحركون أمام هيجان منتظر بعد كذا سنة من الحكم الحديدي والنار.

اتجهت يومًا إلى الثكنة على أمل استرجاع المخطوط، كنت على يقين أنها محاولة متواضعة جدًا لا تسترعي كل ذلك الاهتمام، فكيف أفكر في مصادرتها نهائيًا؟ هي يومياتي في مائة يوم بعد الزواج. لم أجد جوابًا من القائد، اكتفى بالقول:

- «المخطوط أُرسل إلى جهات عليا سنخبرك في الوقت المناسب، لا تخف، أمانتك في الحفظ والصون» بينما مساعده الذي كان أمام الآلة الكاتبة العتيقة، يكتب، كان يبتسم، كأن الوضع لم يتغير بعد الثورة وبعد العهد الجديد، مع ذلك كنت متفائلًا بسبب ابتسامة الجندي المبتسم، يبدو عليه أنه قرأها وأعجبته تلك الحميمية التي كتبت فيها نفسي، وب في نص خياليّ مشبع بمشاهداتي وشهادتي عن العصر.

أسعدتني ابتسامة الدركيّ الشاب، لا أعرف كيف ربطت أمر ضحكته

بأنها رواية مقبولة أثارت اهتمامه وإعجابه، ومن أين جاءني ذاك اليقين بروعتها؟

صرت بعد تلك الضحكة أحب ما كتبت رغم ضياعه من بين يديّ بسهولة. عدت مرات عديدة إلى الثكنة، في كل مرّة أجد إجابة مختلفة عن الأخرى، آخر الإجابات المذهلة تقول: القائد المسؤول في تلك الفترة المدعو «راس الكيلو» الذي أمر بسحبها وبالتالي حوّلها إلى السلطات العليا تم تعيينه مؤخرًا في الجنوب، لم يعد بيننا، ليس لنا كل المعلومات عن هذه القضية. نرجوك سيد سفيان لا تزعجنا مرة أخرى». فهمت من آخر جملة أني غير مرغوب فيه، أكثر من ذلك بدا وجه الدركيّ بلا لون.

زوجتي تعرف هذا المقلب الجديد الذي أحزنني كثيرًا، وأقعدني عن العمل لأسبوع كامل. هي المرة الأولى التي عرفت فيها معنى العطلة المرضية. هو شعور بالظلم الكبير، دخلت مرحلة السبات لفترة طويلة، كنت الزوج غير السعيد بكذا مناوشة تتجدد، لا أجد مبررًا آخر لشتمها، فاجأتني ذات يوم بحملها، قالت: مبروك سفيان. بالتأكيد فرحت، لا أتذكر إن أبديت سعادتي بالحدث المهم في حياتها؟

أُغلق ملف «حرائر» لثلاث سنوات ونصف، صراحة لم أفكر مطلقًا في تلك الفترة بإعادة كتابتها، كأن أمرها لا يعنيني، صرت أكره منظر الثكنة الشامخ المبني على ربوة تطل على كل مداخل ومخارج ب، أتشاءم جدًا من ذكر تفاصيل السيرة/ الرواية، وبنياتها وشخوصها. كتبت في

مرحلة لاحقة قصصًا قصيرة، تنقصها حرارة نصي الأول وصدقه. قل إن شئت كنت مجرد مدّعٍ، نوّام كبير، كنت أجد حريتي في أحلامي التي لا تنقطع. كنت عاديًا جدًا، مجرد مدرس يحاول الكتابة بين الحين والآخر، أقوم بعملي بلا متعة حقيقية ولا بهجة، في انتظار الآتي..

بدأت معاناتي الكبيرة بعد نشر هرارهم ذاك الموسوم بـ«جزائر» مع صورتي في الغلاف، بالأبيض والأسود، لا أعرف من أين حصلوا عليها ولو أني وضعت في الحسبان ما نشرته في جريدة مسائية ذات يوم مع الصورة، هي موضة كتاب جيل جديد يحرصون أشد الحرص على إرسال النص مع الصورة، أنا فعلت ذلك أيضًا، هي نفس الصورة، هي الفرضية الوحيدة الممكنة.

المثير في الأمر وغير المفهوم توزيعها بذاك الكرم، رُوّج لها بأنها الأكثر مقروئية في الجزائر.. تفاجأت بأحد معارفي يخبرني عن كتاب يحمل صورتي، لم أصدق، كانت مزحة ثقيلة بالنسبة لي ذاك الأربعاء الممطر، مع ذلك تنقلت إلى مدينة البويرة بلهفة، اقتنيت الرواية الساخنة جدًا، قرأتها مرات، لم أجد نفسي في تلك الجمل الطويلة، الانسيابية، في تلك الدوامة السردية، لا رابط حقيقي بين الأحداث والشخصيات. هل حدث ثقب في ذاكرتي لأنسى ما كتبته منتصف أيلول وأنهيت المائة صفحة في السابع من أكتوبر؟ ليست لي، أبدًا، اخترقتني رعدة زلزلت جسدي المنهك. في الليل آه على الليل، كلهم يجيؤون حيث أضطجع، أراهم بعيني، عراة تمامًا في طابور طويل، يحاكمونني على فعلتي الدنيئة، ليلي

طويل غامض، أتناوم، أتناول حبات كثيرة من الأدوية لأموت، لكن يأبى النوم المجيء، حتى الموت يعافني في سريري حيث أحاكم ككل الطغاة. كنت الديكتاتور الذي خنق أصواتهم في سيرتهم، الكاذب في سرد تفاصيل حياتهم السرية غير الحقيقية، فأقوّلهم ما لم يقلنه.. أدخل إلى مخادعهم، أستزيد حكيًا عن مؤامراتهم وتحالفاتهم. أنت يا نذل، يا قزم.. أراني قزمًا بالفعل أمام أشباح يتطاولون بعد كل هنيهة.

أسأله:

- «من يحاكمك؟»

- «هم، صدقني... شخصيات ورقية خرجت من السّطر الأخير، من مذبح كبير سلخهم الكاتب الشّبح، نعم هي شخوص ورقية، خرجتْ من صلب الكلمات، من السطر الأخير، أراها تتشكل في هياكل عظمية ثم تتحدث بإسهاب عن حقارتي ونذالتي. لم ترحم هشاشتي تلك وأنا تحت الأغطية، أرتعش بردًا وخوفًا، رأيتهم من لحم ودم: «جعفر» على رأس الكتيبة، بالمناسبة هو مصاص دماء حقيقي، أما في «حرائر» التي كتبتها، دوره كان بسيطًا ومحتشمًا، في الأصل كان قوادًا كبيرًا، ومتسلقًا غريبًا، بقليل من دهائه يصل بسرعة إلى مبتغاه، في نفس الوقت توقعت دمويته في أقرب وقت ممكن، أمّا الكاتب الآخر ليكن من يكون هذا المبدع المبتدع حوّل شخصية «جعفر» في «جزائر» إلى مصاص دماء، أرأيت؟ الكاتب الشبح لم يرحم حتى أصدقاء السلطة الطبيعيين، شوّهها وعرّاها، الأدق وحده الكاتب الشبح القادر على فضح تلك

الأعمال الدنيئة لزبانية غير مؤهلين عمدًا، كان قاسيًا أكثر من قسوتي التي أبديتها في المخطوط، تصور حتى باية التي تنام بجنبي التي أشعر بتنفسها البطيء، أراها معهم، تنسحب ببطء وتنضم إليهم، والله، كنت أراها تجيء معهم، أجل كنت أراها في الطابور مبدية أسفها من وضاعتي، كانت تشتمني.. وهم يتفننون في تعذيبي..

في الصباح تجدني مجبرًا أجلس قبالتها أو أسير خلفها، ليس حبًا بل لأتصيد اللحظة المناسبة لشتمها وتعنيفها، لأنها تحالفت معهم، تغضب جدًا من تصرفاتي الغريبة، بحق لم تفهم هذياني المتشعب، والتغير المفاجئ في سلوكي، تقول لوالدتي سفيان جنّ. لم تصدق أمر المحاكمة التي يجريها أبطال صنعتهم آلة عجيبة من التدليس، بعضهم رفعته الرواية إلى أعلى والبعض الآخر أذلته إذلالًا حقيقيًا، كما في إحدى الفصول القصيرة التي وصفت باية/سكينة وصفًا لا يليق بها، هي باية، الزوجة والرفيقة. لم يتوقف الأمر عند الشخصيات الورقية، يمكن أن أتفهم شكوكهم على أساس أنها تخيلات وتهويمات شاب في بداية مشواره، ممكن جدًا.

أيضًا هناك شخصيات من لحم ودم، من معارفي، أقصد تحديدًا «ف» وهي في الرواية تقترب جدًا من البطلة «زهرة» أو هذا ما اعتقدته «ف» جعلتني فعلًا أسلم بالأمر أني كتبت ولو شذرات من قصتنا، اللاقصة في الواقع، أيام بُعيْد نشر الرواية لا أعرف كيف تحصلتْ على النسخة، هل أحدهم أرسلها لـ»ف». عندما التقيت بها صدفة قرب المؤسسة

التي تعمل فيها هاجمتني بكلمات قذرة: قواد، يا شاذ.. لا أتذكر كل كلماتها المبتذلة، لم تكن هي، صدقني، عندما أفرغت معدتها بالكامل من كلمات وقذارة شرعتْ في البكاء، تبكي لأني شوهتها بقصة وهمية لا علاقة لها بالواقع، تضيف: أنت من دمر حياتي بقصتك التافهة، كنت سأتزوج لولا روايتك التي جعلتني أضحوكة في المؤسسة والحي.

- أنا؟ أنا شوهتك؟ قلت لها.

بدأت تقرأ الفصول التي جاءت على لسان زهرة. «ألا تخجل يا.. وصل بك الوهم لتختلق مشاهد لا أساس لها من الصحة؟ أن تعرّيني... على كلٍ تبولت على روايتك، إلى الجحيم يا تافه... سأتزوج رغم أنفك، ورغم روايتك..» هكذا غادرت «ف» المكان، تركتني أتلوى وحيدًا من الوجع.

فعلاوة على الإعجاب الذي ألاقيه من مراهقين، فعلًا أعجبتهم تلك المشاهد الساخنة، تلقيت أيضًا صعوبات من آخرين، فمثلًا، تصور مدير إكمالية تكفل بشراء عدد من النسخ على أساس أنها لكاتب درس في نفس الإكمالية، ولأن الكاتب ينتمي إقليميًا إلى مدينة «ب» ولأن السلطات احتفت بالرواية، إلى غيرها من المبررات الواهية التي سردها المدير أمامي وأنا قدام الكنتوار أحتسي الشاي، غير مهتم بالخطبة الطويلة وبالمقدمة الثقيلة التي أراها صالحة في قسمة الحزب الوحيد، ثم شرع يسخر مني، من وقاحتي البينة وأنا أصف «العجب». يضيف:

- «أنا الذي دفعت دم قلبي لشراء مسخك لأهديها لأصدقاء وصديقات

وأساتذة أجلاء، ثم أتفاجأ بردود أفعالهم وتساؤلاتهم: كيف سمحت لنفسك سيدي المدير بشراء رواية تتحدث عن الثقبة «حاشاكم» وعن ليلة الدخلة؟»

أنهى غضبه بالقول أنه سيرفع دعوى قضائية ضدي.

قلت له ببرودة أعصاب:

- بلط البحر...

سكت سفيان على حين غرة. هديره كالموج الصاخب، متدفق من أعلى مرتبة الضياع والهلع.

- «ممتاز، لأنك رسمت خطة طريق كانت مجهولة بالنسبة لي، الأصح يا سيد سفيان أنك وضعت يدك بالضبط في موضع الألم، ربما لولا حرقتك طيلة سنوات ما توصلت إلى ما أنت فيه الآن، هذا مشجع جدًا».

كان متوترًا للغاية، صوته وصل إلى قاعة الانتظار، أطلت زبيدة مرات لتستفسر أو تستعد لما هو أسوأ. يتحدث جالسًا واقفًا، بيديه وبكامل أعضائه، تقول أنه في حلبة ملاكمة. شرب من قارورة ماء أكثر من مرة، فتح الجرائد الموضوعة فوق الطاولة الصغيرة أكثر من مرة.

- «قصة خوفك الهستيري، وكآبتك هذه... لا علينا، سيد سفيان، أحيانا شفاؤنا بيدينا، قل هو قريب جدًا منا، لو ننتبه بشكل سليم لما حولنا، أنت بحاجة إلى مساعدة بسيطة لا أكثر، لست أنا القائل أو

المكتشف لطريقة علاج مثل هذه الحالة، حتى لا تشكّك في نواياي، عليك أن تواجه نفس الظروف التي عشتها، تلك اللحظة الأولى، الليلة الأولى إن أمكن ذلك، أجل تلك القصة التي كتبتها منذ سنوات، هي نفسها، هي دليل براءتك وشفائك، البحث عن الذات الضائعة في تلك المواجهة الأولى، هل عشت قصة حب وفقدت العشيقة؟ عندما تفقدها لظروف ما، تعيش فيك حتى ولو أنها مستحيلة، تعود دومًا إلى الأماكن التي جمعتكما. حتى ولو تلك الحبيبة فقدت من بريقها ومن جمالها إلى أنها ستبقى في دواخلك. هه، لتتخلص من كل أخطائك سيد سفيان عليك مواجهة الحالة وأنت مسلح بقلمك وأفكارك، أن تكون أنت مجددًا، سفيان عبد الجليل الأول، بداية من الليلة، ليس خطابًا مجانيًا، تأكد أني أحدثك كصديق، فهم مشكلتك أو حاول فهم الحالة التي أرهقتك وتعيد الكرة ثانية وثالثة، ثم بإمكانك كتابة ما تؤمن به، وما تراه صادقًا وسليمًا، ويعبر عن شخصك وواقعك. في وضعك الحالي، الكتابة دواء أكثر من الفترة التي كنت فيها معافى.

- لا أحد باستطاعته أن يمنعك من فعل الكتابة. أكتب إذن، ماذا تنتظر؟

- لا شيء.

- هل تعدني بأنك ستجرب الليلة؟

- أحاول... ممكن جدًا.

تجدني أدقق وأفحص وأتحرى كشرطي في مهام سرّية، لا كطبيب مختص، أمامي ملفات عليّ التخلص منها وبأمانة شديدة كنت معنيًا بحالات إنسانية أصبحت تشكل جزءًا أساسيًا من حياتي. ربما هو قدري في هذه المدينة أن ألتقي هذا الكاتب المدعو سفيان عبد الجليل، قدري أيضًا أن ألجأ في وقت أكثر صعوبة عشتها إلى أشدّ خصومة، «راس الكيلو» لحمايتي بوصفه خبيرًا أمنيًا -سابقًا- يحسن المناورة والمباغتة، ربما بسببهما قررت كتابة هذا الكتاب الأسود.

في سنواتي الأولى الضائعة من عمري داخل العيادة كنت مجبرًا على قراءة كل الجرائد الوطنية الجادة والصفراء والفنية والرياضية، جمعت ملفًا ضخمًا عن الحوادث الغريبة، كظواهر تستحق الدراسة بحكم تخصصي، ثم تشكلت غمامة في رأسي من الخوف والشك والتدمير المتصاعد أسمعه يوميًا وأقرأ تفاصيله يوميًا، تصلني أخباره شفاهة: في حافلة النقل العمومي، في المقاهي الشعبية، يتناولونها همسًا والرعب في عيونهم، في أجسادهم في انسحابهم المباغت كلما ظهر شخص في مكان ما يرتدي قشابية أو بملامح غريبة وقاتلة. الآن، منصهر تمامًا مع حالات أكثر أهمية من قراءة الجرائد وتتبع مسارات وأخبار تشبه أفلام رعب في منتصف الليل.

وجدتُ بصعوبة تلك المشوّهة الموسومة بـ«جزائر» الطبعة الثانية الأنيقة بغلاف مغرٍ وجذاب، وصورة امرأة طويلة في مهب الريح تنحني كزهرة الأدلويز لكنها لا تنكسر، يغلب عليها اللون الأبيض والأزرق

رغم الفضاء الأسود المحيط بالصورة المشعة. رواية سيئة السمعة في المدينة، في مدينة «ب» خاصة، حيث يسكن سفيان، تنقلت إليها مرارًا في الأمسيات، أتعمد الجلوس في مقهى «دار السلام» مقهاه قبل مرضه، من حسن حظي التقيت بعدد من معارفه والقليل من قرائه، ولو أن الرواية كانت لفترة غير قصيرة عنوانًا لمرحلة جديدة بدايتها مجيء الرئيس محمد بوضياف يوم ١٦ جانفي ١٩٩٢.

طبعت «جزائر» في مطبعة شهيرة، بآلاف النسخ، وزعت في المداشر قبل المدن الكبيرة، قيل لي أن سفيان ربما من الشهرة المفاجئة قاطع الملتقيات الأدبية كرد فعل عنيف تجاه الذين احتقروا موهبته في البداية، وقاطع الندوات التي خصصت لمناقشة روايته الجريئة بمشاهدها الجنسية في جزائر جديدة. قيل لي بالمناسبة أن سفيان مصدوم حقًا بالإشهار الذي صاحب الرواية في التلفزيون العمومي الوحيد كل ليلة قبيل النشرة الرئيسية. قيل إن الفاصل الإشهاري كان بمثابة مقصلة تجريبية لفصل رأسه عن جسده. في تلك اللحظات التي أسرق فيها الحديث عمدًا عن سفيان أتلقى الكمّ الهائل من السخرية والنكت والإشاعات التي رافقت حياة رواية كتبها الشاب سفيان عبد الجليل..

قال آخر:

- مجنون، مريض سفيان، كيف يصف أدق تفاصيل حياته الجنسية في ليلة الدخلة؟ يضيف آخر بتبجح:

- سفيان، وقح يستاهل كل الذي حدث له.

- كتابة رديئة، استغلالي ذاك المتهور وأنصفه القدر.

- لا يستحق كل ذلك الذي حدث، فهو مجرد بهلوان، صنعه الحزب واستغل الزبانية اسمه تمريرًا لرسائلهم وتوريط البلد في سياحة جنسية بدعوى الحرية.

- خسارة يا دكتور تضيع وقتك في حشرة تستحق الشنق.

القليل منهم جدًا تحدث بمحبة عن سفيان، وبإسهاب عن حيويته، وموهبته وقراءاته. وسلميته، فبطلة زهرة التي قرأها البعض على أنها قصة «ف» هي امتداد للتشويه الذي لاحق باية في فصول لاحقة. أما المقالات الصادرة في تلك الفترة على كثرتها كانت في اتجاه واحد، كانت مؤدلجة جدًا، كأنها كتبت بقلم واحد، كلها تصبّ في مصلحة الرواية الشّفافة الجريئة التي سمّت الأسماء بمسمياتها. من أصدق؟

عدت من مدينة «ب» بمشاعر متناقضة، يبدو سفيان هو الجلاد والضحية في نفس الوقت، قلت الفاصل الأخير هي «جزائر».

قرأت الرواية في ليلتين كاملتين حرفًا حرفًا، لا أدعي أنها بالفعل سلخت أو حوّرت لمصلحة ما، بالمجمل كتبت بسوء نية وخبث حقيقة، بذكر الأماكن الحقيقية وشهادات وملابسات في قضايا معينة، وفصول عن جلد الذات بزواج دمّر البطل «كريم»، ما يهمني من تلك القصة السردية المسبوكة سبكًا متقنًا، تلك الفصول الأخيرة القبيحة جدًا، الوصف الجارح العاري لمشاهد (قد تكون حقيقية) وهو يعتليها كدابة،

يجامعها بعنف انتقامًا لصورة كان يراها وحده، صورتها وهي تحتضن عشيقها، تلك الصفحات الحمراء المليئة بالمشاهد الجنسية أعادتني رغمًا عني إلى روايات كانت إلى وقت ما أملي في قراءتها كرواية الحب في زمن الكوليرا، رواية ثلج الربيع، الاحتقار، السأم، إيفا...

سجلت كل الملاحظات التي تتعلق بالعلاقة غير السوية المازوشية غير المعهودة في الأدب الجزائري مع أني وضعت احتمالًا قد يكون في محله، إن تلك الكتابة كانت مجرد ترويج أو بحث عن مكان تحت الظل، وضعت في الحسبان طرائق المرضى الكثيرة لمراوغتك أو لإبراز ذكائهم الخارق. كلما فكرت في زوايا الموضوع بجدية كأني أسير على حقل ألغام، بدت مهمتي حقًا شبه عبثية، مداخل كثيرة لحالة إنسانية هشّة.

صعب جدًا أن يكون الحظ معك دائمًا، هذه المرة أستطيع القول بنعم، كنت محظوظًا جدًا، لأن القدر جمعني بغير تخطيط مسبق مع «راس الكيلو» المبجل، في مقهى المسرح الصغير، إذ رأيته بأنفه الكبير يتابع كل صغيرة وكبيرة تمر أمام عينيه، هو بلحمه ورأسه الضخم الحليق جدًا، واضعًا قبعته الأوروبية جانبًا، في مساء متقلب. اقتربت من عرينه ليراني، جلست في طاولة مجاورة لطاولته، الحقيقة لم أكن مهيأً لمحاورته، ولم أتوقع ردة فعله إزاء شخص غريب مثلي، وضعت الجرائد أمامي، شعرت بهدوئه وأنا أجلس بالقرب منه، رغم أني طبيب مختص بالأمراض النفسية، في تلك الهنيهة السريعة لم أعرف كيف أتصرف في

موقف لا يتكرر دائمًا. هل من المستحسن أن أحدثه على أساس أني أعرفه كرجل أمن في سلك الدرك الوطني؟ أم أجرّه للحديث كأي شخص على الهامش كمتقاعد فقد امتيازات الأمس؟

أي طريقة مثلى تجعل هذا الملقب بـ»راس الكيلو» الكهل يتحرر من تحفظاته ومحاذير كثيرة ملأت حياته، من قوانين صارمة لا تشوبها شائبة؟

أخيراً، بادرته بالسلام:

- «أهلًا حضرات».

كان سعيدًا بكلمة اخترتها بعناية «حضرات»، إذ ابتسمت أساريره ووجهه وعيناه، كنت الشخص الذي يذكره بالأيام الخوالي، بأيامه المجيدة السعيدة في كل المدن التي اشتغل فيها.

- «مرحبًا...»

فحص سحنتي محاولًا تذكري، لم يفلح ببساطة لأنه لم يسبق أن التقينا. قدمت نفسي بتواضع:

- «هشام عبدي، طبيب».

نجحت في أول امتحان غير رسمي، تحدثنا مطولًا عن صحته، عن صعوبة الأيام في تقاعده، إذ يفكر في إنشاء شركة حراسة أمنية كما فعل العديد من زملائه، ليش لا؟ البلد ما زال بحاجة إلى خدماتي يا دكتور، أليس كذلك؟»

قلت: بلى، خاصة وأنت تتمتع بذكاء وخبرة وسمعة طيبة، من لا يعرفك يا حضرات؟» المجاملة أحيانًا لها سحرها الخاص. فليعذرني عمي بشير لأن في تلك الساعة المسائية الحبلى رأيته مجرد جلاد قهر ضحاياه بكلابة وأسلاك الكهرباء.

- «شكرًا شكرًا..»

التقيت به ثانية في نفس الفترة في نفس المكان: مقهى المسرح الصغير، والعهدة على من روى أنه المكان الذي يفضله الشاذون، يقال أيضًا: في المقهى يجدون تسهيلات كثيرة.

لا علينا، لم أقصد أن عمي بشير كان شاذًا، ربما كان يقصد المسرح الصغير لشرفتها المطلة على نصف المدينة. يستمتع بمنظر المشاة والمتسكعين الذين يتغزلون بالفتيات.

ارتاح لرؤيتي جدًا، ما زال يحتفظ بصرامته، يتباهى بعناده بتلك الأوصاف التي التصقت بشخصه: كالسفاح والكناس، لأنه كلما دخل بلدة إلا وكنسها من الحشاشين ومدمني الهيروين. لا يجد حرجًا إذ ناديته «براس الكيلو» أو بالسفاح، يعتز بإرثه الذي اكتسبه من زبائنه المجرمين. لكن تغيرتْ سحنته تمامًا عندما عرف أني طبيب نفساني. تردد قليلًا قبل أن يقول:

- «هل أرسلوك إلي؟»

تفاجأت فعلًا بلغته الجافة، الخشبية وبحدة نظراته. بالكاد أفهمته:

إنها «الصدفة يا صديقي ومن يرسلني إليك» وأنا كالغريب في مدينة مرضاها لا يلجؤون إلى الطبيب، يكتفون بالأعشاب والأدوية التقليدية، أنا أيضًا بحاجة إلى طبيب يخرجني من العزلة. اقتنع أخيرًا بخطابي المطول، غير رأيه بصعوبة، عاد إلى طبيعته السمحة شبه مطمئن لمرارتي وشكواي من شح مدينتهم. وتفكيري الجدّي في هجرتها قريبًا.

كنت بحاجة إلى ساعات وساعات معه ليقول لي بحزن:

- «عندما اشتكى أحد جيراني بي ورفع دعوى أمام المحكمة، فشلت كل مساعي الصلح بيننا، نفد صبري وشتمته، يومها واجهتني القاضية -سامحها الله- وقالت أنت تحتاج إلى علاج نفسي، لو ما زلت دركيًا، لرأت مني من يحتاج إلى علاج؟ وها أنت تجيء إليّ». يضحك بصدق، كان أكثر خجلًا.

قلت: لا تمسك بالقشة الأخيرة أو كتاجر محترف يتصيد زبونه:

- «صعب عندما يعترف الشخص لصديقه بمشكلته لكنها المنفذ الأجمل للحل والشفاء، جرب لتعرف كم هي ممتعة الأيام بعد الاعتراف. ستتخلص من عبء ثقيل يربك حياتك».

- «هل صحيح يا صديقي؟»

قلت: «كلنا بحاجة إلى طبيب يساعدنا على المقاومة».

تعمدت الكشف عن الرواية بوضعها أمامه مباشرة ليقرأ عنوانها، لم تثره بالمطلق، بالعكس تفاداها. لم يعلق أصلًا عن ملابسات شغلت

الـرأي المحـلي بـين مصـدق مـا جـاء في الروايـة ومكـذب لمتاهـات أبـدع فيهـا المدعـو سـفيان عبـد الجليـل. مـرّات عديـدة ذكـرت اسـم صديقـي سـفيان عبـد الجليـل، أيضًـا لا يعلـق بـشيء، كان مجـرد اسـم يتحاشـاه الدركي السـابق بحسـن النيـة أو بسـوء النيـة لا أعـرف الحقيقـة. هـذا التجاهـل عـزّز شـكوكي تجـاه حكايـة سـفيان المتقنـة، كأنـه يلعـب لعبتـه اللغويـة التـي يتقنهـا ليخـرج بعـد حـين بنـص مغايـر لحرائـر.. ألا يلعـب معنـا بهـذا الأسـلوب التنكـريّ بلـفّ نفسـه بهالـة ثـم ينقلـب علينـا جميعًـا؟ كانـت مجـرد أسـئلة أو شـكوك موضوعيـة لا بـدّ مـن حـلٍّ حاسـم.

جـاء سـفيان عبـد الجليـل في الموعـد، رفقـة زوجتـه «بايـة» المتعبـة والمشوشـة بمطالبـه ورغباتـه التـي لا تنتهـي، ذبـول حـول جفنيهـا، وشرود كميـزة تحـاول إبـرازه أو كنـوع مـن الشـكوى، كأنهـا غـير معنيـة تمامًـا بهـذا السـفر في الـذات والذاكـرة التـي أجبرهـا لخوضهـا معًـا ومـن جديـد، سـوى المزيـد مـن الجـروح غـير الملتئمـة، ليـس تهويـلًا أبـدًا إذا قلـت إنهـا تتـألم بالفعـل، قـرأت الكثـير في عينيهـا الشـاردتين الملتبسـتين بعمـى الألـوان أو بالعمـى الـذي يحيـط حياتهـا بالكامـل مـن تفاصيـل وصراخ يومـي ومـوت تدريجـي لـكل حواسـها تبـدو أكـبر مـن سـنها الحقيقـي.

جلـس سـفيان عـلى كرسـيه المعتـاد، كان أكـثر أناقـة مـن المقابلـة الأولى، بينـما طلبـت مـن بايـة أن تنتظـر في القاعة المجـاورة. أظهرتُ حماسي الشـديد بمجيئـه في الموعـد، أخـذ سـفيان نفسًـا عميقًـا، يكتشـف قاعـة الفحـص مـن جديـد، يتأمـل في الصـور، في المعلقـات القليلـة الخاصـة بالأدويـة. تعمـدت

وضع روايته على طرف المكتب. تجاهلها بالفعل. فتحت كناشتي التي دونت ملاحظاتي الكثيرة منها ما يتعلق بالأسلوب ومنها ما يتعلق أصلًا بشخصية الراوي الأساسي الذي رأيته هو «سفيان» بكل تصرفاته وعنفوانه في العشرينيات من عمره. لا علينا، جلست بالقرب منه، ببذلة أنيقة زرقاء، وربطة عنق، لأنه يحب هذا النوع من اللباس، قلت:

- «سعيد لأني وجدت روايتك «جزائر» قرأتها بالكامل، عشت أجواء رائعة رفقة أبطالك وتلك المشاهد الجميلة عن الأمكنة والروائح..»

تفاجأت بردّ فعله السريعة، كأنه حضر نفسه لجدال عنيف. وصلت يداه إلى النسخة، مزقها إربًا إربًا. شتم راس الكيلو وحثالته. هدأته بصعوبة بالغة. ناولته زبيدة كوب ماء، ربما هي السبب في هدوئه عندما دخلت، كأن صراخه ذاك أمامها أخجله.

قال أخيرًا:

- «ليست لي، أرجوك لا تحسسني بأني مذنب. تكفيني تلك الليالي الطويلة التي أتعذب فيها بمفردي».

- أبدًا، بالعكس الرواية رائعة، كنت مذهلًا، الرواية مدهشة بأسلوبها المباشر الغني المحير في أكثر من تفاصيل المتن. لنفترض أنها ليست لك، -على الأقل- أنها مشوّهة في بعض فصولها، في تصرفات شخوص، لكن في النهاية أنت أبدعتها في الأصل، مثلا: باية، تأكدتُ أنها هي التي وصفتها في الفصل الثالث، هل أقرأ على مسامعك إن نسيت؟

تغيرت سحنته فجأة، أردته أن يكون سفيان الآخر الواهم، الحالم، المريض أيضًا، ذاك الخائف من أشباح الليل، المفزوع كل ليلة من محاكمة يتخيلهم وهم يشنقونه، يفتحون جسده ويفرغون حفنات الملح والخل والبول. بدأت أقرأ من صفحة أربعة وأربعين:

«صورة تلاحقني، تدفعني لأقتلها وأتخلص من هذا الوسواس، ليس وسواسًا، هي بصمتها تؤكد حقيقة أنها عاشقة، من يا ترى؟ تنسل إلى جنبي في قيلولة ساخنة، بينما قلبي تعصره آلام الغدر البين، منحتني ظهرها الأبيض، كانت شبه عارية.. صرخ سفيان في وجهي ملدوغًا، تقلصت عضلات وجهه الأسمر الذي كساه الشحوب في لحظة، قائلًا بصوت راعد:

- «توقف أرجوك.. توقف قلت لك... توقف..»

قفز من الأريكة واقفًا على قدميه، جسده يرتعش، كان في قمّة الغضب.

أضاف ورذاذ لعابه يتطاير من شفتيه:

- «جئت لتسمعني لا لأسمع هرارهم».

اضطرني الموقف المكهرب لإبداء أسفي الشديد «مدعيًا» لم سببته له من إزعاج، «صدقني أريد في نهاية الأمر مساعدتك، إن رأيت أني غير قادر على ذلك فلك أن تغادر».

لم ينبس ببنت شفة، فاجأني بالعودة إلى مكانه بهدوء، همس

باسـتعطاف:

- «لا، هـراء مـا قرأتـه، هـذا ليـس مني لم أكتـب هـذا، تصـور الكاتـب الشبح يعـرف كل شيء عني، هنـا يكمـن مربـط الفرس، هـل اسـتطاعوا أن يصلـوا إلى رؤوسـنا وخيالاتنـا وأحلامنـا؟، أنـا».

- «إلى الآن لم أفهـم حقًـا مشـكلتك الأساسـية سـيد سـفيان، تـارة أقـول يمكـن بالفعـل مصـادرة مجهـودك وتحويـره بهـذا الشـكل قـد يسـبب لـك هـذا الألم المـزدوج، مـن جهـة أخـرى أعتقـد وأتمنـى أن أكـون مخطئًـا بالفعل، مشـكلتك الرئيسـية هـي مجـرد شـكوك وأوهـام، تحولـت مـع الوقـت إلى انفصـام حقيقـي، لا مفـر مـن الاعـتراف الكامـل لتتحـرر مـن عقـدة الذنـب، مـن عقدتـك الأبديـة التـي لازمتـك وحولتـك إلى مريـض».

تـردّد في الإجابـة كثـيرًا، كنـت ألاعـب بقلمـي سـلاحي الوحيـد في مثـل هـذه الأوضـاع المربكـة، بقـي صامتًـا، كلـما تأهـب في الخـوض يصمـت، ثـم يتمـدد، كان تنفسـه قويًـا ممزوجًـا بهشاشـة رهيبـة كأنـه يفـارق للتـو، تبـدو الإجابـة قريبـة مـن حلقـه، قريبـة جـدًا، ثـم تختفـي، يـتردد. جعلنـي أسـحبه حيـث يريـد دون المسـاس بكرامتـه وماضيـه.

سألته:

- «وهل ما زلت تكتب؟»

سـكت، بـدا متعبًـا جـدًا، تعمـدت إثارتـه واسـتفزاز ذاكرتـه عـن تلـك الفـترة الحرجـة. لم يقـل شـيئًا ذي أهميـة.

قلـت: يكفـي سـيد سـفيان اليـوم، رجـاء لي آخـر طلـب، لـك الخيـار بالرفـض أو القبـول، في الجلسـة المقبلـة، أريـد سـماع رأي زوجتـك، لعلمـك هـذا في صالحـك.

-٢-

ربع الساعة الأخير

-١-

عاد عمي بشير أخيرًا بخبرين سيئين للغاية، لم يشأ إفساد الجو الذي كنته لثلاثة أيام حيث كنت مسجونًا في كتابي الأسود الذي أرغمني على التعري، في مواجهة مرايا داخلية وخارجية.

هه يا صديقي كيف هي المدينة؟ كأني غبت عنها سنوات. حاول إخفاء قلقه المتزايد وأنا منتشٍ بالقهوة الساخنة وحبات الكرواسون التي جلبها معه وجرائد وبرتقال وأغراض أخرى. أبلغني بصعوبة عن محاولاته المتكررة لردع الرينڤو، المشكلة أعمق بتدخل أخيه الأكبر الذي كان وراء تلك التطورات، لعلمك (يضيف) مريم اختفت، نجت بأعجوبة من موت محقق. الرينڤو يترصد خطواتك، تقريبًا يسكن في شارع ستراسبورغ، أنصحك بالإبلاغ عنه لأن القضية أكبر من اختفائك لأيام، ما دام الوضع خرج للعلن بهذه الطريقة، ولا أستبعد أيضًا وصول الخبر إلى زوجتك عبير.

أخذت الهاتف الموضوع بالقرب مني، تملكني الرعب من سماع صوتها الرخيم، صوت عبير الشجيّ، وحده يجعلني سعيدًا، رومانسيًا رغم إغراءات مريم، صوتها فقط يستطيع لملمة أعضائي المهزوزة من البرد والرعب. تفهّم عمي بشير ترددي، تجرأت للمرة الأخيرة وفعلتها، رنّ الهاتف مرات عديدة، أعدت الكرّة، أقصى أحلامي أن تقول عبير:

«نعم، أنا أسمعك» لم تفعلها عبير، أتفهم سبب غضبها، سبب نفورها الآن.. لكني... تجدني بحاجة لمن يسمعني. كنت لسنوات أسمع فقط ثم أقرر، أسمع آهات وأكاذيب وقصص وعقد نفسية ومتاهات، قصص عشق وخيانات. الآن، أنا بحاجة لأذنيّ عبير لتسمعني بكل مسامات جسدها، بقلبها... لم ترد، تعمدت إذلالي وسحقي كأية حشرة ضارّة. كنت حشرة بالفعل.

قاطع عمي بشير تخيلاتي البشعة، كانت لحظة رهيبة إذ لم أتخيل يومًا تعاملني عبير بتلك الوحشية، أسمعه (يحاول ردم الهوة السحيقة) يكرر طلبه مخافة من الأسوأ، عليك بالإبلاغ يا صديقي، قد تنتهي مشاكلك فعلًا بمجرد إبلاغ رجال الأمن، أتحدث بوصفي رجل أمن سابق.

- «سأفعل في الوقت المناسب. سأفعل ذلك بالتأكيد، لكنها لِمَ تغلق الهاتف؟»

لم يجبني بكلمة تشفي غليلي ولو أني أدركت حقًا نهايتي الحقيقية بطريقة عبير غير الرحيمة. كل محاولات صديقي باءت بالفشل للتخفيف من وجع السكاكين الصدئة، طلبت منه بشكل فجائي مرافقته لي إلى قلب المدينة. كنت أختنق أو تيار جارف من الحنين يقودني إلى أزقة تعشقها عبير. كأني أودع الحياة. هل يشعر الميت بقرب نهايته؟ كانت البومة لليالٍ تزعجني بينما أنا أكتب، هي نفس البومة التي تقف قريبًا من الشقة، أسمعها بدل اللقلق الذي كان يوقظني، اللقلق الذي

يسعدني كل صباح برفع رأسه كأنه يحييني كلما فتحت نافذة الشرفة.

قال بتعاطف شديد: أوكي بعد التاسعة ليلًا، لا تحزن يا رجل.

ذات صباح لا يشبه أي صباح آخر في حياتي، دخلت زبيدة تخبرني بمجيء سفيان رفقة زوجته تسألني عن إمكانية إدخالهما؟ كنت أرتدي المئزر الأزرق، عدلت عن الفكرة أخيرًا، سألت زبيدة عن مواعيد أخرى، قالت إلى الآن ثلاثة مرضى في القائمة. حينها اقتحمت مريم القاعة، لم أشبع بعد من منظر الصفصافة واللقلق في عشه يتغزل برفيقته شبه النائمة.. هي أمامي، بمعطفها الطويل المزين بفروة حريرية بنفسجية، هي مريم، التي أشتهي رؤيتها دائمًا على أساس أنها الشبيهة بسهى، لم أتوقع إطلاقًا عودتها، آخر مرة رأيتها في عيادتي جاءت مساءً، لم أتفاجأ قط بزيارتها تلك، كون علاقتي بها بدأت تأخذ منعرجًا غير متوقع، مذ ارتباطها بالعمل في مؤسسة مشبوهة تسمى «روايال» للأقمشة، قلّلت من زياراتها، قالت يومًا أنها تفكر في الطلاق، «حياتي جحيم يا هشام، هو شبه ميت، والله تعبت». لم تكن لي حلولٌ سحرية، الحقيقة كنت أكره سماع تلك القصص الضّحلة، في آخر الدوام تضطجع كالعادة، تأخذ بيدي غير المنتمية، الباردة كانت أكثر جنونًا، مثقلة بألوان جذابة في لباسها والأكثر إغراء، في مكياجها الخفيف، كأنها وضعته للتو، كانت سعيدة بعودتها إليّ، لامتني كثيرًا لأني تركتها تتغيب كل هذه المدة البشعة. اقتربت مني أكثر، رمت بثقلها على جسدي المتعب من فرط الوقوف طيلة اليوم، تحتضنني كأي طفل مستسلم لهيجانها المسائي، واضعة رأسها في عنقي، باحثة أخيرًا عن شفتي. أخذت يدي واضعة

إيـاه في منطقـة المثلـث السـاخن المتوهـج، لم تـترك لي أيـة فرصـة للهـروب مـن حـرارة المثلـث المزغـب... نـار.. تقـول وعيناهـا مغمضتـان.

مـن هـو الشـخص الـذي تـراه في تلـك اللحظـة المتوهجـة هذيانًـا ولعابًـا يسـيل مـن كل ثقوبهـا؟ أنـا أم صاحـب المحـلات الكبـيرة؟ كنـت أنـا الـذي تتخيلـه في لعبتهـا الأخـيرة أم هـو بمالـه وسـياراته ومحلاّتـه الكثـيرة؟ كنـت بليـدًا، شـبه ميـت في وقفتـي لا أختلـف كثـيرًا عـن زوجهـا النائـم في ذلـك المسـاء المزدحـم. لم تعـد تتصـل بي للاستفسـار أو تجديـد الوصفـة. كأنهـا تريـد أن يعـود «الرينقـو» إلى طبيعتـه الأولى كمجنـون رسـمي، أو يضيـع نهائيًـا.

هـا هـي أمامـي بكامـل أناقتهـا، تهـاوت عـلى الأريكـة القريبـة، كانـت شـاحبة، مرعوبـة، لم تنظـر إليّ، كأني غـير موجـود في دائرتهـا الضيقـة تلـك. قلـت:

- «أهلًا مريم».

قالت بلا مقدمات:

- «أنا حامل، هو سيقتلني لا محالة، علاوة سيقتلني يا هشام».

لم أسـتوعب كلمـة «حامـل».. الأدق لم أفهـم جيـدًا لغتهـا مـن اللحظـة الأولى التـي انفجـرت فيهـا بالبـكاء. سـقطت أقنعـة مريـم دفعـة واحـدة، ككل الرجـال كنتـه لحظتهـا، كرهتهـا، أشـمّ عهـرًا تفـوح بـه عيـادتي. لم تكـن قـط في يـوم مـن الأيـام سـهى الصغـيرة، أبـدًا ليسـت هـي.

- هي.... مريم مجرد عاهرة.

اكتفيت بإشارة يدي الثقيلة المتشنّجة:

«اخرجي.....»

كنت متوترًا، الأصح مذهولًا مما سمعته من مريم، كيف حصل الذي حصل؟ أعرف أن الرينقو لا يقربها أبدًا، مطلقًا. كيف...؟ كأني غير مصدق ما سمعته منها تحديدًا.

«اخرجي».

دخلت زبيدة، لا تخفي اشمئزازها من جسد تفوح منه عرق الذئاب. كانت تكرهها قبل اليوم، مرات أشعر بالممرضة تمتعض من وجود أفعى جميلة في حجرة الفحص. فتحت زبيدة باب الحجرة تطالبها بالخروج لوجود حالة مستعجلة تنتظر:

- «اخرجي.. هيا بسرعة..»

عينا زبيدة تقطعني إربًا إربًا دون أن تقول كلمة. شيعتها بعيني وهي تغادر المكان، في أعماقي ألف اعتذار لسهى لأني اعتقدت في يوم من الأيام أني عوضتها بمريم أو ألبست مريم أثوابها الجميلة وشعرها. اعتذرت لعبير بصوت هامس يشبه بكاءً حارقًا.

اعتذرت لمرضاي تلك اللحظة أن يمهلوني ساعة من الزمن، صعب أن يتفهموا ذلك الوضع الذي عايشته بمفردي، صعب أن أباشر عملي بعد ضياعي في دوامة لم أكن طرفًا فيها، ربما كنت طرفًا من يدري؟ بقيت

لساعة كاملة في حيرة حقيقية من أمري.

دخل سفيان منتعشًا، هذا مؤكد، قرأت ذلك في عينيه العسليتين، المتقدتين، رغم هزاله إلى أنه كان سعيدًا، قال أنه كتب الكثير في الليالي الأخيرة، لم يجد المفتاح الضروري للرواية «حرائر» لكنه استرجع قلمه بالفعل وتستطيع القول يا دكتور أن سفيان هزم الخوف من جديد، أشكرك.

لم أخف حزني مطلقًا، كنت صامتًا، بالغت في لامبالاتي بما يتلفظ به سفيان عبد الجليل، طلبت منه الانتظار في القاعة المجاورة، أمرت باية بالجلوس قبالتي، طبعًا «أضفت» بعد موافقتك سيد سفيان.

- لا بأس.

-٢-

هزمتني دموع باية، هذه الإنسانة البكاءة كلما خلت بنفسها في ركن الغرفة. أدعي أني سأقف على الحياد قدر المستطاع بعد هذه الجمل القليلة الضرورية. جلست قبالتي، مستسلمة ومتعبة جدًا شبه منهارة من هذا المسار الطويل وهي تتردد على الرّقاة ثم المستشفى العام، أخيرًا عيادتي التي أخذت شهرة أُحسد عليها، هي قبالتي شبه متحفزة. قلت لها أني مضطر لسماعها لا كشرطي أحقق في قضية شائكة. يخيل لي أني أعرف بالضبط ما أفعله في مثل هذه الحالات، ومع شخصيات ك»باية» التي تحترف لغة الصمت، والانزواء والكتمان الشديد. قلت: (تعمدت أسلوب الصدمة على المداهنة والمراوغة منذ اللحظة الأولى):

- «لم يشكّك فيك؟»

صدى كلمات مريم لا تزال ترن في فضاء الصالة، سؤالي يشبه صفعة مدوية، النساء الثرثارات لا يحتجن إلى مثل هذا السؤال المباغت، لكن باية تحتاج إلى صعقة كهربائية، إلى صدمة عنيفة كي تخرج من اللانتماء. كانت هنا في نفس الوقت الذي كانت هناك، في مكان ما شيّدته بأناملها وحكاياتها الطويلة. عالمها الخاص.

- «يشكك فيّ؟ آه نعم، ودائمًا، منذ اليوم الأول من شهر العسل، نعم كان يشكّك في خلجات نفسي، في حركاتي.. يشكّك في باية رغم أنها قالت

لـه واللـه أحبـك وحـدك، لا أحـد آخـر يسـكن قلبـي سـواك».

تفاجـأت بتغيـير الضمـير إلى الغائـب العليـم بـأدق تفاصيـل الموضـوع سـألتها:

- «لِمَ تحكي عنها بدلًا عنك؟»

(للعلـم حاولـت قـدر المسـتطاع ترجمـة أفكارهـا وكلماتهـا بأمانـة مـن لغتهـا الأمازيغيـة إلى العربيـة العالمـة العارفـة، مضطـر لفعـل هـذه الخيانـة الجميلـة)..

- «سـيدي أتظـن أني أحـكي عـن بايـة الجالسـة الآن أمامـك، المدفونـة داخـل جلبابهـا التقليـدي الـرثّ، لسـت تلـك التـي كنتهـا قبـل عـشر سـنوات أو أكـثر، بايـة الأولى ماتـت ودفنـت يـا سـيدي، أو قتلتهـا «إيـه» رأيتهـا عندمـا انكمشـتْ وانسـحبت إلى داخـل الإطـار الخشـبي القديـم، رأيتهـا وهـي تغـادر المـكان، مخلفـة وراءهـا الأسـئلة والحرائـق والدمـع. تلـك الصـورة علقتهـا بنفسـي لأراهـا مليًـا كل يـوم، كل لحظـة أعنفهـا، أكرههـا، أكـره بايـة التـي اكتشـفت جسـدها أول مـرة، تلـك التـي سـكتت يـوم الخطوبـة وقيـل الصمـت دليـل القبـول والرضـا، تلـك التـي انتظرتـه ليلـة الدخلـة عـلى حافـة السريـر، كانـت ليلـة مقمـرة، مليئـة بالقلـق والخـوف والتشـنج، والقليـل مـن الفـرح الخفـيّ. تلـك الأنثـى الجميلـة الصغـيرة رأيتهـا بعينـي عندمـا تسـلقت الإطـار الخشـبي لتمـوت ببطـء كلـما سـمعته يشـفط أو يـصرخ بحثًـا عـن صراع مجـاني، تشـمئز مـن قنوطـه وعدوانيتـه، يكـشر عـن أنيابـه بحثًـا عـن مدخـل ليلطمهـا أو يسـحقها كأي دودة....

رأتـه حينـما دخـل، كان نحيـلًا مـن فـرط التدخـين، قلقًـا مثلهـا، امتـلأ بالوصايـا والقصـص والحكايـات، أجـل، حملهـا بـين ذراعيـه إلى السـماء في أول لقـاء ليـليّ صاخـب في الجـوار. مـن أيـن لـه تلـك القـوة وهـي الممتلئـة جـدًا، مـع ميـل إلى السـمنة المحتملـة مـع أول حمـل قـادم. قالـت بايـة الصغـيرة المتوهجـة كلمتهـا الأولى الصاعـدة مـن أعماقهـا في خضـم تلـك اللحظـة البهيجـة: «أحبـك». صدقهـا وفـرح لأنهـا قالـت بعظمـة لسـانها كلمـة جميلـة، تحمـل القسـاة إلى القمـة، آه عـلى تلـك الليلـة المجنونـة! حملهـا بعيـدًا إلى قصـوره وأحلامـه، إلى قصصـه التـي قـرأ بعضًـا منهـا، إلى الجرائـد التـي لم تقـدر موهبتـه بعـد، عـن قصصـه غـير المنشـورة، ربمـا غِـيرة مـن لغتـه القويـة. كانـت المـرة الأولى التـي تتخلـص فيهـا مـن خجلهـا مجبرة، التهمهـا قبـل أن يغمـى عليهـا مـرارًا مـن فـرط التقبيـل المجنـون المتبـادل بينهـما. هـي لـك بايـة التـي أحبهـا وكانـت ملهمتـه في نصـه الأول الـذي قـرأه فعـلًا وهـي تسـمع ولا تسـمع، مأخـوذة بسـحر حكيـه، تمنـت لحظتهـا أن تلطمـه وتلتهمـه وتبرحـه ضربًـا.

- «لِم لم يسرقني من قبل؟» قالت في قرارة نفسها.

أول نحيـب متقطـع يصـل إلى باحـة البيـت، تـسرع والدتـه إلى الغرفـة لضمّهـا، تحـاول لملمـة الموضـوع في أول صراخ بينهـما، ثـم الثـاني ثـم الثالـث... الرابـع، لم تعـرف ابنهـا سـفيان بهـذه العدوانيـة وبهـذا التـصرف الأهـوج في أول شـهر زواج، أبـدًا لم يكـن بهـذا الشـكل، كل مـا تعـرف عنـه أنـه غـاوي كتـب، عطـوف، مسـالم، بخيـال مجنـح، مـليء بالحكايـات الغريبـة، يمـزج

الحقيقة بالخيال، لا تستطيع التمييز بين الخيال والواقع. له الكثير من الحلول السحرية لمشاكل العائلة.

قالت الوالدة أخيراً: «ما بكما؟»

لا تعرف سبب عنفه أو شكه أو غيرته ولا يعرف سفيان عبد الجليل لماذا كل ذلك الصراخ المجاني؟ فشلت الوالدة في إسكاتها، تخرج من الغرفة قلقة، إذ تراه يغادر مساءً إلى حيث لا تدري، تغلق الباب الخشبي على نفسها، لساعات، عند العشاء تحاول الوالدة ثم الوالد إخراجها من عزلتها لكنهما يفشلان، ثم تأتي أخت سفيان الصغرى تستحلفها بالله بالخروج لكنها تأبى، إلى أن تسمع خطوات الشبشب عند العتبة، تسرع لفتح الباب وتعود إلى سريرها فتغطي جسدها بملاءة بنفسجية، تشعر باقترابه إلى المكتب الصغير، يسحب كرسيه القديم، وحفيف أوراق تأخذ مكانها نصب عينيه، كانت الليلة الأولى التي يعود فيها إلى ذلك الركن الساحر كما يدّعي. هل كان ينظر إليها وهي تصطنع النوم؟ أم كان في قمة غضبه فعلًا وفي قمة كراهيته لها؟

يتحـول الشـهر الـذي يسـمى مجـازًا شـهر العسـل إلى شـهر غسـيل بامتيـاز، بايـة ترتـب الغرفـة التـي تضيـق بأحلامها البسـيطة، أو تجتهـد في تغيـير ديكورهـا المتواضـع الـذي يتكـون مـن سريـر حديـدي وخزانـة ذات بابين، حقائـب يـد صغيرة، ومكتـب بالـكاد يدخـل سـفيان قدميـه النحيلتين، واضعًـا أمامـه صورتـه الوحيـدة المكـبرة، يتفـاءل بهـا (يقـول) كلـما جلـس قبالـة الصورة يأتيـه الإلهـام وتنسـاب الأفـكار الكبـيرة حيـث تحـاصره حصـارًا لا فـكاك منـه، فيكتبهـا ليسـتريح مـن الألم الـذي تمارسـه سـطوة الشـخصيات البشـعة، الحالمـة، كان يقـول أكتـب نصًـا يشـبهني، نصًـا عـن مشـاهداتي وأحلامـي وبـؤسي. وهـي، أي بايـة الصغـيرة، تسـتمع بنصـف اهتـمام لهذيانـه ممزوجًـا بالجنـون، يبـدو في تلـك اللحظـات كالطائـر المجنـح، يُحـوّل تلـك الأحاديـث إلى كلـمات مفتاحيـة في نصـوص لـن تـرى النـور أبـدًا. يكتـب بشراهـة عـشرات الصفحـات، ليمزقهـا لاحقًـا، فتجـد القصاصـات طريقهـا إلى زوايـا الغرفـة الضيقـة وفي أسـوأ الحـالات تصـل إلى كل أرجـاء البيـت، تتقاذفهـا ريـح أوائـل الخريـف، يمتـزج الحـبر بغبـار الزقـاق كسـمفونية مسـائية مـع غضبهـا وهـي تكنـس غثيانـه، ذاك التذمـر يتفاقـم يومًـا بعـد يـوم، أو تراهـا تجـري وراء القصاصـات الطائـرة في الفنـاء، لا تخفـي أبـدًا فرحتهـا مـن هزيمتـه الدائمـة المتكـررة مـع نصـه الأول الـذي يـأبى الاكتـمال والنضـوج. تسـخر بايـة مـن جفـاء ينابيـع إبداعـه. أشـدّ مـا يزعجهـا بالفعـل منظـر الغرفـة التـي تغـرق في فوضـاه كأنـه يتعمـد ذلـك لإذلالهـا: جواربـه

المرمية هنا وهناك وقمصانه التي كوتها صباحًا وأعقاب السجائر والقصاصات تحت السرير، فوقه، في زوايا الغرفة... تتأفف. يقرأ ذلك كعلامة سلبية في أول الطريق، كأنها غير قادرة على التأقلم مع حياتها الجديدة السريعة المضطربة باضطرابه وقلقه وشروده غير المبرر.

يراقب كل ذلك الشطط، لاسيما في القيلولة، وهو ممدد على البلاط يقرأ رواية «خان الخليلي» أو رواية «الاحتقار» أو «نجمة» شبه متعب، يتعمد الانهماك في القراءة لكن عينيه في جسدها، يتمنى أن تأتي بدل التأفف وملاحقة قمصانه وجواربه وأخطائه.

في المساء يغادر البيت إلى «ب» كعريس جديد يهتم بهندامه، بتسريحة شعره الأسود الخفيف، في كل الحالات يخرج سعيدًا لأنه الكاتب القادم الحالم بوجه آخر للحياة لا تعنيه مدينة «ب» المعدمة بقدر ما تعنيه الكرة الأرضية. يجلس في أي مقهى وحيدًا، هل صحيح ذاك النص جعله أكثر غربة وتوحشًا؟ مسكون بسرد يوميات المدينة وأصدقائه المولعين بالأفلام الهندية، التي يشاهدونها في «قاعة الريش» في مدينة البويرة التي تبعد عن مدينة «ب» بعشرين ميلًا أو يزيد قليلًا، يسرد باحترافية مشهد العائدين من قاعة السينما وهم حيارى تختزل صورهم بالفعل الغبن العام الذي تعيشه المدن الهامشية الموحلة.

يضيف «السينما فعلًا مريحة لكنها مخدر منعش». كان يكتب فصولًا عن أولئك الشبان مثلًا، كان منبهرًا بشخصية «عبد الباقي» الملقب بسلفادور، بالتأكيد لم يعرف سلفادور السريالي، لكنه عايش لقبه بمتعة

لا تضاهيها أية متعة أخرى، ربما لشعرية الاسم، فينزل من الحافلة وهو يضع منديله على جبهته مقلدًا الممثل الهندي الشهير «خان» يتحدث سفيان عن شخصية «بازو» وعن المهرج المدعو «شقلالة». هل هو عشق للسينما أم هو الحرمان يا «ب» الغارقة في مشكلات هامشية؟ هو الآخر يقصد قاعة الريش أحيانًا.

تتزايد النفايات المنزلية كلما كتب فكرة جديدة، أو قصة يبدأها ليلًا أو صباحًا، ومزيد من الأوهام والأحلام والابتعاد عن الاحتماء الحقيقي والاحتضان. تكتشف باية أنها تزوجت شخصًا تهلكه الأحلام، هي القادمة من قرية إيفري الصغيرة، هناك توقفت الجدات عن الحكي، هناك لم يعد أي مكان لشهرزاد في الأكواخ الطينية ليلًا أو نهارًا، كن ينمن باكرًا، عند الفجر يهرعن إلى الحقول. لم يعد هناك نساء، هن تماثيل رخامية وشمعية يذبن بسرعة، تراهن يتساقطن قبل الأوان أو يشخن مبكرًا جدًا، تختفي الابتسامة منذ أمد بعيد، كان يعرف كل تلك التفاصيل الصغيرة التي لا يتردد في كتابتها ليلًا لتجد طريقها إلى أقرب زاوية في الغرفة، يراها تتأفف مرة أخرى مع كل لفة تلفها، يكره بالفعل تكشيرتها الغامضة أو يتكور غيضه في أعماقه ليتشكل قنبلة موقوتة، فيزداد انكماشًا في متاهته المظلمة مخافة انفجاره الأكيد.

بعد شهر، بحث عن منفذ ليصب جام غضبه دفعة واحدة، ربما لاعتقاده أنها كانت السبب في القحط والعطالة التي دمرته شيئًا فشيئًا. فيلجأ إلى الاستفزاز المعلن، لا تمنحه الفرصة كاملة، إذ تتبرم من ثقل

كلماته السّمجة، فتنفر من وجهه غير الحليق في شهر أيلول/سبتمبر، إذ تشمئز من تصرفات طائش يتعرى وباب الغرفة مفتوح. فتختلق قصة الانشغال في باحة المنزل إما هروبًا من الغرفة أو احتماءً بالصمت وهي تغرق في طرز فساتينها الجديدة في ركن ما، أو تسرح شعرها الطويل الأشقر أو تتمدد غير عابئة بزعيقه المتواصل سبًا وشتمًا، كانت تلاحق بعينيها صورة ما معلقة في سقف الغرفة على المروحة الثلاثية الأجنحة البيضاء. تضطرها الحاجة للتمدد في قيلولة لا بدّ منها، لن تتردد في نزع ملابسها الخفيفة إغواءً له أو مصالحة حقيقية نهائية ليبدأ من جديد، يلتهمها بعينين دامعتين متحجرتين كالخائف من القادم المجهول. يصمت، ينسحب حيث هي، بعدما مزق آخر القصاصة، يتمدد جنبها بلا اعتذار، بلا خجل ولا حواجز، هه، يجس نبضها الهادر كالموج، لا تزال عيناها معلقتين بالسقف، حينها يكون سفيان ممتعًا، ممتلئا بحبها، يتوسد شعرها الطويل، لكنه يعود حيث توقف بالأمس إلى شخوصه الهلاميين، يراهم حقًا في أزقة «ب» أو في مدينة البويرة، في كل مكان يرتاده، هل هو قدري أن أتابع بهذا الجنون شخوصًا متعبة أكرهها نهارًا وأحبها ليلًا، لكنها تأبى مساعدتي لاقتحامها بعنف يكون جديرًا بعنفها الأبدي. مجبرة أن تسمع هديره إلى الأخير لأنها أحست أنه يسير ببطء إلى الهاوية.

بالتأكيد لم تعرفه بهذا الشكل، هل خادعها عندما كان يجيء إلى قرية إيفري في أوقات متباعدة. هل هو الشخص نفسه عندما يصل

القريـة يعطـر أرجاءهـا بحكاياتـه الجميلـة؟ بسـحره الـذي يجلـب لـه الحسـد والغـيرة، هـي متأكـدة مـن ذلـك كثـيرًا. هـو هكـذا يختفـي ليظهـر ذات ربيـع، تـراه عـن قـرب أكـثر حيويـة وربمـا سـحرًا لأخريـات لا تعرفهـن بالتأكيـد، كان أكـثر أقرانـه جنونـًا، وإبهـارًا وحكيًـا، ربمـا كذبًـا، مـن صنـع خيالـه المتدفـق الـذي يأخـذك بغـير إذن إلى حيـث يريـد هـو.

مـرات قليلـة، اعترفـت بايـة في قـرارة نفسـها: ليـس غريبًـا أن يـسرق اهتمامـي هـذا المجنـون. إذ كان منـذ زمـن طويـل الصيـاد الماهـر للفراشـات والزرازيـر والوحيـد القـادر عـلى قطـف أزهـار الأدلويـز البيضـاء السـاحرة النـادرة. هـو المسـكون بالكتـب والقصـص والأسـئلة والنكـت والأحـلام والأغـاني والقليـل مـن الأكاذيـب البيضـاء.

اختفـى كأي جبان لثلاث سـنوات ثـم يظهـر في القريـة نحيفًـا، يتحـدث بـلا توقـف عـن مشـاهداته، عـن الكتـب التـي قرأهـا، يتحـدث عـن القريـة التـي تغـيرت بالتأكيـد، عنهـا التـي ازدادت جـمالًا، وطـولًا، وشـهرة، كأن لا أحـد في القريـة سـواها، أو هكـذا تخيـل بعـد عودتـه، التقاهـا مـرات قليلـة في الزقـاق وجهًـا لوجـه، كـبرت بايـة، كأنهـا لم تعرفـه، ليسـت تلـك التـي كتبـت لـه أول مـرة أشـواقها، ليسـت تلـك الخجولـة التـي يسـاعدها في حـل المسـائل الحسـابية... عودتـه بعـد غيـاب طويـل لا معنـى لـه، أحـسّ بالضيـاع والغربـة في أجـواء القريـة التـي بـدأت تتمـدن أو تتدهـور. في تلـك السـنوات البعيـدة البريئـة تجـد نفسـها معجبـة بـه ولا تخفـي ذلـك أبـدًا، يسـعده فرحهـا الطفـولي الخجـول جـدًا، يسـتزيد حكيًـا وطربًـا وهـي بـين رفيقاتهـا

الصغيرات وهن يذهبن إلى المدرسة، أو يبدي ولعه بالرياضيات متباهيًا بقدرته على حلّ أصعب المشكلات، كان يراها عصفورة نادرة، ساحرة ومثيرة، فتدفعه إلى التميز. لم يكن يقل لها شيئًا فقط كل ما يفعله من أفعال استثنائية كان يقصدها، يستهدف قلبها الرقيق، يأتي حيث تكون باية الصغيرة، جالسة، أو تلعب لعبة الغميضة ليجالسها ثم ترافقه إلى مملكته البعيدة. تعرف فقط أنه أحبها. تتجرأ وهي تلميذة في السادسة ابتدائي بكتابة قصاصة صغيرة بقلم الرصاص الوحيد الذي تملكه: أحبك سفيان. كلمة بسيطة، قوية، يتيمة، كأنها تريد القول: لست أقل منك هوسًا بسحر الكتابة التي تتشدق بها. تلك العشية الخريفية، يبدو سفيان أطول من المعتاد، وأجمل وأسعد شخص في إيفري الجبلية، قرأ القصاصة مئات المرات، قرأها مع صديق طفولته عبدو الذي يكبره سنًا، حملها كثيرًا في جيبه. لم يتردد في سكب حرائقه في رسالة أطول للساكنة في القلب كما يدعي.

تنقلب على جنبها الأيسر، تلعن يوم قبولها الزواج من مجنون يدعى سفيان الذي حوّل يومياتها إلى جحيم وقصاصات وأفكار سخيفة. فتفاجأ بيديه من خلفها راقصًا مدعيًا أنه وجدها أخيرًا. استسلمت.. يضحك. يبحث عن ثغرها الصغير الجميل المكتنز، يغمرها قبلات عنيفة، في جيدها، على خديها، أول مرة تسمعه يقول: «أنت أجمل النساء عزيزتي باية».

هل تضحك معه أم ترقص أم تغط في نوم عميق؟ تتكرر مفاجأته،

كشمس في يوم غائم، تتكرر هزائمه أيضًا، إلى أن سمعها تغني أغنية شاعرية حالمة، كان صوتها الأنثوي الجميل كالرذاذ، دافئًا في مساء ينذر بغضب الطبيعة، استمع من خلف الباب الموارب وهي تغني الأغنية عن غريب بعيد... من؟ حيث تقول الأغنية البسيطة: «أين أنت حبيبي؟

المطر يهطل

الثلج غطى المدينة

أين أنت حبيبي»

لحظة انسجامها مع الأغنية، دخل سفيان كالثور الهائج، كالجريح برماح القبيلة، ضحكات الرّماة تصله حيث كان قبالتها، متلبسة بجرم الغناء الشّجيّ، ليس له سوى الارتماء على السرير وبه رغبة في البكاء، كانت مشدوهة لمنظره البائس المتحوّل. ليس بمقدوره مواجهتها سوى إذلالها بصمت أعقبه تأنيب لا يخلو من سخرية من صوتها الذي وصل إلى آخر الشارع، أكملي أسمعك الآن، أنا هنا لأسمع أغنيتك الجميلة، ثم لم يهطل المطر حتى تخافي عليه أو أنك تقصدينني؟ هيا واصلي. أسمعك بكل جوارحي، أسمع موالك الحزين. لا تخافي، لا أسألك من يكون هذا المحظوظ الغريب البعيد، الذي تخافين عليه من رذاذ المطر؟

سمّرتها الدهشة والذهول من منظره، والشرر يتطاير من عينيه، من منخريه. واقفًا، جالسًا. يتحرك في الغرفة كالمجنون، تجلس قبالة المكتب،

يأتيها لهاثه كأنه صعد إلى قمة جبل عالية.

- هيا أسمعك؟

أخيرًا قالت:

- «والله لا أحد غيرك، لا أحد، لماذا لا تصدقني؟ هي أغنية جميلة حفظتها عن ظهر قلب أين المشكلة في هذا؟

ثم تنفجر باكية، يتلذذ باستسلامها التام لشكّه المعلن لأوّل مرة، شكّه شلّ حركتها ولسانها، بقيت لوقت طويل لا تعرف أي تصرف تسلكه؟ أو أي ردّة فعل تعيد للمجنون تعقله؟

لم تكن الأغنية هي السبب في الشرارة، أبدًا، لعلّ فشله الذريع في نشر قصته الأولى التي علق عليها آمالًا كبيرة هي الشرارة الحقيقية لكل شروره، تعلقه بالقصة التي ترفعه من قبوه المظلم إلى فوق السحاب. كان بشعًا بمنظره وتصرفاته الصبيانية غير المبررة، لكنها تعاطفت معه حقًا بعد نكسته الشخصية في وضع الحجر الأساس في صحيفة وطنية. تعاطفت مع يأسه الممزوج غضبًا وتمزقًا مريعًا.

كان يتوجس من حركاتها وأنفاسها ونظراتها، أسباب كثيرة جعلته يشكّك في ماضيها القريب «مدعيًا» رغم أنها قالت له: «أحبك» في ليلة الدخلة السّاحرة، كانت بين يديه كالعصفورة التي تبحث عن عشّ دافئ.. تلك الحكاية تؤلمه، بقيت في أعماقه المظلمة بشراستها. تراه يعود إلى زاويته التي يخط فيها ألمه الكبير بغير داع. لم تكن مقتنعة

بتاتًا بالأحاجي التي سردها في ليلة عاصفة جدًا بشكّه، أعقبته بكلمات جارحة قالتها دفاعًا عن كرامتها.

في يوم آخر، عاد من العمل مفككًا، تفاجأت به والشرر يتطاير من عينيه، هو الشخص الذي لم تعرفه من قبل.

- «أنت نذير شؤم! مذ تزوجتك والمصائب من أمامي ومن خلفي.. سيختفي البحر إن ذهبت إليه.. تفوه..»

هي الشرارة الثانية في خريف غاضب حقًا، توترت أمام هول ما رأت وما سمعت من سفيان الهمجي، يتحرك كالأهوج، لا تعرف رأسها من قدميها، لا تعرف كيف تتصرف في اختبار حقيقي آخر، كانت تصغي بكل ذرّات جسدها المنتفض لكلماته الجارحة، ازداد تماديًا، صوته يصل إلى باحة البيت، والدته أرجأت تدخلها إلى حين، هي الأخرى تفاجأت بسيل جارف من السباب والشتائم..

أخيرًا قالها:

- «حقيرة، أنت... أنت..»

بلع جملًا أخرى أكثر وقاحة، أنصاف كلمات ورموز واتهامات متتالية، يتدخل أخوه الأصغر وفي يده سوط، مهددًا إياه بالخروج: وإلا.. اخرج يا جبان، يا...

قالت باية أخيرًا:

- «وكلت عليكم ربي، أنتم زوجتموني مجنونًا لا يرحم».

لم يكن لها سوى الذهول والسقوط الحر بطولها على أول كنبة كانت إلى جانبها، لم يسعها البكاء أو الصراخ، أو هل تخرج من صمتها أمام سيله الوسخ واتهاماته.. يمزق أوراقًا كانت بين يديه. يخرج من البيت مدعيًا بلا عودة إلى مكان موبوء ببومة حوّلت حياته إلى جحيم.. حاولت والدته أن تقف أمامه ملوحة بيدها في الفضاء الداكن، تريد لطمه إن تمادى، تفادى يدها النحيفة المرتفعة، قائلة:

- «...»

آخر قولها كان جارحًا جدًا، إذ ماذا عساها تفعل إزاء إعصار في غرفتها الهشة؟

أنا نذير شؤم يا... حقير! هل نسيت رسائل الشوق وأنت تترجاني، وأنت تكتب شعرًا في جمال عيني؟ أنسيت عندما أوصدت في وجهك كل الأبواب والنوافذ وصرت تتوسل إليّ وترسل لي وسطاء ثم اختفيت كأي جبان من إيفري ذات صيف؟ أنا نذيرة شؤم، أنا يا...؟ أنسيت عندما كنت تحبو وتترجاني لأقبل بك زوجًا.. كنتَ لا شيء...»

يتوسل إليها في ظلمة الليل، يمرر يده على بطنها أولًا كجس نبض ل ابد منه، ثم نهديها الصغيرين، تنفسها يزداد تسارعًا، غضبًا ربما، يعتذر بهمس، يتوسل أن تسامحه، هي المرة الأخيرة «باية، اغفري زلات لساني الكثيرة هذه الأيام» لا يتوقف عن النحيب كالطفل، يكرر اعتذاراته، الشّك هشمه كقطعة زجاج، هزمه في أول اختبار عندما عادا إلى القرية. «أتذكرين عندما التقيتك في إيفري وقد تعمدت إذلالي بصدك

لي، بتعاليـك، كأنـك لسـت أنـت التـي كتبـت لي ذات يـوم: «أحبـك».

تصلهـما أصـوات الغاضبـين في مدينـة «ب» إلى المخـدع، استمعا إلى أغـاني الثـوار الصغـار القادمـة مـن الأحيـاء الفقـيرة في اتجـاه مقـر البلديـة، تلـك الليلـة تسـاهلت معـه، جعلتـه يتمـدد جنبهـا، نادمًـا. المؤكـد والمؤسـف حقًّـا أنهـا لم تسـامحه رغـم كل مـا قالـه مـن هواجسـه أو الشـيطان الـذي وسـوس لـه في حالـة يـأس مدمـرة. غلبـه النعـاس رغـم شـوقه للواجـب الليـلي المعتاد، صـور كثـيرة تشـتت رغبتـه إلى أن سرقـه النـوم متعبًـا تعسًـا.

تنتهـز فرصـة نومـه العميـق المهشـم بسـبب هـذا الخـلاف والـذي لا تسـتطيع أن تتجـاوزه أو تهضمـه، ولا تعـرف كيـف تتخلـص مـن عقدتهـا الأبديـة ووقوفهـا دائمًـا في المـكان الخطـأ، في المنطقـة الرماديـة، هـي نفسـها كانـت تصمـت إزاء المواقـف واللحظـات الصعبـة في حياتهـا، تتذكـر ترددهـا الأبـدي في اتخـاذ موقـف حاسـم يخصهـا، لم تكـن حازمـة يـوم خطبتهـا، بـل انسـحبت إلى فراشـها الـرثّ، غطـت كامـل جسـدها الرقيـق بينـما والدتهـا تثرثـر مـع والـدة سـفيان عبـد الجليـل. تصرفاتهـا تلـك الليلـة الغريبـة المليئـة بـالأسرار مريبـة بالفعـل، بقيـت بـلا عشـاء، لم تشـارك نسـوة البيـت السّـمر الـذي تواصـل إلى منتصـف الليـل، أكـثر مـن ذلـك استسـلمت لدمعهـا المـدرارة، لا أحـد يعـرف مـا كان يـدور في خلدهـا مطلقًـا، أكانـت تحـب أحـدًا؟ أم هـي مسـألة خـوف مـن شـاب كان أول مـن خطـف قلبهـا؟ أجـل هـو الـذي جعـل قلبهـا ينتفـض انتفاضـة غريبـة، هـل لأنهـا تنظـر إليـه بريبـة وشـك غريـزي، متهمـة إيـاه في وقـت مـن الأوقـات أنـه تخـلى عنهـا في

وقـت كانـت بحاجـة إليـه..

لم تقل شيئًا عقب قبول والدها تلك الخطبة مبدئيًا، ولم ترفض..

كان يكتـب بجدّ بعـد ليلـة الثالـث مـن شـهر أكتوبـر، قلّـت مسـوداته التـي كان يرميهـا هنـا وهنـاك، انهمـك بغـير شـكوى، كان حزينًـا جـدًا بعـد مـوت أو اغتيـال «السـعيد الـدّق». كانـت بايـة تسـمع حديثـه مـع الوالـد همسًـا كأن الأمـر في غايـة السريـة، في غضـون ذلـك تحولـت المدينـة كلهـا إلى تجمـع بـشري يهمـس بـشيء خطـير قـد يحـدث. مـما شـككت في نوايـاه وعاودهـا القلـق المزمـن، قلبهـا يدفعهـا دفعًـا لقـراءة مسـودات كثـيرة بـدأت تتراكـم عـلى السـطح عـلى غـير العـادة، منصهـرًا أو متماهيًـا مـع تلـك الوجـوه التـي تتشـكل في مسـاحات لـن يراهـا غـيره، تتحـرك غـيرة منـه بـذاك التجـلي في سـاعات تـدوم إلى منتصـف الليـل كأنـه يتحـاشى أن يعيـد حبـل الـدفء لجسـديهما قبـل قلبيهـما. تصنعـت حـركات مثـيرة لتسـتجلب اهتمامـه، أو تقـوم مـن فراشـها لتمـر جنبـه بعطرهـا الجديـد «صنـع محـلي» بشـعرها الكسـتنائي الطويـل الـذي يغطـي بيـاض جسـدها الناعـم الممتلـئ، كأنهـا تسـتعرض كامـل أنوثتهـا في ليلـة أولهـا نـار وآخرهـا بـردٌ وقُبـل، مـن يـدري؟ سـفيان نفسـه يتمنـى أن تنتهـي تلـك الليلـة بمـا يشـتهيه مـن التحـام حقيقـي ينهـي الخصـام، يبقـى مـترددًا بـين مـدّ اليـد لملامسـتها أو العـودة إلى مكتبـه.. مـن المبتـدأ؟ أو يعـدّ إلى العـشرة إن لم تبـادر سـيبادر.. إن لـن تفعـل سـأفعل: واحـد ..ثـلاث.. تسـعة... يعيـد العـدّ مـن جديـد، هـي لا تحـرك سـاكنًا، تمنحـه ظهرهـا العـاري. يسـقط كالعـادة والنـدم ينهشـه مـن الداخـل.

استيقظ باكرًا كالعادة، كانت باية أبهى وهي تقف أمام المرآة، وضعت صينية القهوة أمامه، هذا مشجع، لكن الوقت داهمه فعلًا، تمنى أن يضمها بكل عنفوانه، والدته في الباحة تهمس بشيء ذي أهمية مع والده، أطلت باية من النافذة تسترق السمع، إذ تقول لسفيان هناك حدث ما، كارثة ما.. تراه يحرج، يحزنها منظره في مشيته المتعثرة.

تفاجأ سفيان بعدد غير قليل من شباب المقاهي الخارج في ساعة صباحية غير عادية يوم الرابع من شهر أكتوبر، كانت مدينة «ب» النائمة منذ الاستقلال تستنفر قواها، بالضبط في المكان الذي كان السعيد الدّق يتزعم تمردًا فريدًا وحوله شباب وأعيان القوم فرحين بزخمه السياسي وما سيقوله من تحليل لما آلت إليه البلد بسبب الندرة التي هزمتهم جميعًا، كان سعيدًا بالتطور الحاصل في لحظات، وتحولت تلك الحلقة الصغيرة إلى منصة لإلقاء المزيد من الخطب الحماسية فأخذت مجرى متصاعدًا ملتهبًا وحراكًا سياسيًا.

تحوّلت الدائرة إلى طوفان يجوب الشارع الوحيد في اتجاه مقر البلدية وجماعة أخرى أخذت طريقها إلى قسمة الحزب الوحيد، أحدهم حمل شعارًا، وجد سفيان نفسه وسط الزحام المتحرك الذي يتلوى كثعبان يعرف فريسته تمام المعرفة.

كان يكتب بشكل منتظم، من يدري فيم يفكر؟ من يدري كيف جعلته تلك المظاهرات الصاخبة شخصًا مختلفًا حائرًا؟ ينسى الخلاف بمجرد بدء الأحداث غير المتوقعة التي قلبت رأس المدينة، نشرت قصته

الأولى الموسـومة بـ«آخـر قصاصـة»، يجـري في الزقـاق كالطفـل، تفاجـأت بعودتـه باكـرًا عـلى غـير العـادة، فـرش لهـا الجريـدة كـما لم يفعـل مـن قبـل، كانـت تنتظـر المفاجـأة، أي هديـة تخـرج مـن بـين السـطور؟ أشـار إلى صورتـه التـي تتوسـط الجريـدة، لم تعلـق بـشيء ذي أهميـة، كأنهـا بـدأت معركتهـا مبكـرًا للـرّد السريـع عـلى شـكوكه ونظراتـه الجارحـة. لم تشـأ حتـى قـراءة العنـوان، مـرّر الجريـدة، لوالدتـه، كان محطـمًا بالكامـل، يـشرح لهـا بغـير حـماس هـذا النجـاح النسـبي، لكـن الطريـق لا تـزال بعيـدة وشـاقة بـلا شـك..

في الصباح تسأله:

- «من هي ليلى؟»

إذن قرأت القصة؟ تساءل في قرارة نفسه.

- «كائـن ورقـي، لا يشـبهك عـلى كل، مجـرد خيـال أخـذني إليهـا في ليلـة صعبـة».

بـدت غاضبـة، أحـسّ بصعوبـة التعايـش معهـا، عندمـا اقـترب منهـا وهـي نائمـة عـلى جنبهـا الأيـسر، تنتظـر يـده التـي يمدهـا كالعـادة، بـاردة، عندمـا وضـع يـده عـلى وركيهـا، رمتهـا بـلا تـردد، تحججـت بأنهـا غـير مسـتعدة، حـاول مـرات لكنهـا تصـده بعنـف، تبـكي بصمـت، أبكتهـا ليـلى التـي لا تعرفهـا أبـدًا. في آخـر الليـل قالـت أنهـا مريضـة...

- «مريضة ألا تفهم؟»

عـاد إلى مكتبـه مهزومًـا، أكـثر هشاشـة مـن أي وقـت مـضى، أخـذ وقتـه كاملًا ليبـدأ مـن جديـد.

بـين الحـين والآخـر يطـل بنصـف عـين حيـث تنـام أو تفكـر في شيء مهـم من يـدري؟

كان يكتـب، كأنـه في تسـابق مـع الزمـن بعـد رحيـل المدعـو السـعيد. رأى أعمـدة الدخـان تتصاعـد ابتـداءً مـن ليلـة الثالـث مـن أكتوبـر، ثـم عمّمـت في باقـي المـدن، في الجزائـر العاصمـة خاصـة، تـراه يقبـع في مـكان قـصيّ مـن الغرفـة يتلبسـه شـيطان الإبـداع، أو يكـذب بـين الحـين والآخـر بانفـلات لغـوي لا يوقفـه صمتهـا.. قـرأت بايـة فعـلًا عـن لعنـة العنـوان الـذي يطـارده، كتـب عـدة عناويـن عـلى ظهـر المغلـف البنـيّ.

....

بلا تردد قالت أخيرًا:

«نعم كتب حرائر».

لم يكـن سـهلًا مطلقًـا أن تقـول الحقيقـة، كان سـفيان مجـرد واهـم، شـكّاك غيـور، مهـووس، تجمـع كـذا عيـب في تكوينـه، لكـن كيـف أقـول لـه ذلـك؟ كيـف أسـحبه إلى مـرآة داخليـة يـرى نفسـه حقيقـة، كيـف أجعلـه يعـود بـكل جنونـه إلى ميدانـه، ليكـذب كـما يشـاء، ليكتـب شـكّه وقلقـه. هـل يكـون لي الوقـت الـكافي لكتابـة المزيـد مـن الأوراق والألم؟

في آخـر مكالمـة جاءتنـي الليلـة الماضيـة، مكالمـة غامضـة غمـوض الموقف

الـذي كنتـه منـذ أسـبوع، يقـول الصـوت الذكـوري: يـا جبـان، ويـن تهـرب منـا؟ بالتأكيـد لم يكـن صـوت المجنـون، لكنـه صـوت مرعـب، غلقـت الهاتـف عـلى إثـر صراخـه وتعجرفـه. وصـوت البومـة يعلـو مزعجًـا، مزعجًـا. قلـت متصنعًـا الشـجاعة: غـدًا سـأضع حـدًا للمهزلـة التـي أوقعتنـي فيهـا مريـم. جميـل ونحـن نحلـم. ثـم ننـام نومًـا طويـلًا يـا سـفيان.

-٤-

الطوفان

«علينا تعلم التعايش مع فكرة الفاجعة»

بذور سحرية

-١-

لم يكـن يومًـا سـيد هشـام فظًـا أو عصبيًا كـما كان في تلـك الزيـارة الغريبة الأخـيرة، طلبنـي عقـب خـروج بايـة مبـاشرة مـن قاعـة الفحـص، لم يكـن قـط متحمسًـا لسـماعي، قـد أنهـى شـيئًا كتبـه للتـو، في نفـس الكناشـة الصفـراء، عـلى مـا يبـدو تخصنـي، ثـم رفـع بـصره عـن الورقـة، إذ واجهنـي بالقـول: «إنـك تجـري وراء الوهـم، بإمكانـك أن تتوقـف عـن تنـاول أدويتـك، وتعـود إلى كتاباتـك وحياتـك العاديـة، أجـل مـا ترويـه لا علاقـة لـه بالواقـع، كلنـا نتعـرض لضغـوط نفسـية، أو تظـل القصـة تتعايـش معنـا إلى أن نصدقهـا، صحيـح لم أتوصـل إلى فـك شـيفرة الصـورة التـي تلازمـك وتتخيـل هـؤلاء الـزوار أو الشـخصيات الورقيـة كـما تسـميها، في كل الحـالات عليـك أن تحـب روايتـك تلـك، إن أخطـأت في بعـض تفاصيلهـا هـذا ليـس عيبًـا بالعكـس، يعنـي أنـك كنـت أصيـلًا، كتبـت بصـدق، وبعمـق. ثـم لم ألمـس أي شـهرة حدثتنـي عنهـا، كانـت روايـة جيـدة إجـمالًا لكـن لم تصـل إلى تلـك الهالـة التـي رسـمتها في مخيلتـك، كقـارئ أثمـن ذلـك بـل أحـترم جرأتـك تلـك، لا أقصـد تمامًـا أنـك تكـذب، فيهـا جـزء هـام مـن الوهـم، هـذا التوتـر الـذي أصابـك ربمـا راجـع إلى ندمـك الكبـير بتعرضـك لسـيرتك ضمـن المشـهد العـام، ربمـا تذمّـر ورفـض بايـة هـو سـبب مأسـاتك، أكـثر مـن هـذا يـا صديقـي سـفيان «راس الكيلـو» لم يتذكـر قـط حادثـة المخطـوط، لم أقـل لـك مـن قبـل أني التقيـت بـه وتحدثـت معـه بهـذا الشـأن، لم يذكـر قـط أنـه كان في

يـوم مـن الأيـام مرابطًـا في النقطـة الكيلومتريـة ٤٥ بضواحـي «ب». ولم يرفـع تقريـرًا يخـص مخطوطًـا معينًـا، صحيـح هـو داهـم أوكار المدمنـين والمجرمـين ولم يداهـم يومًـا محفظـة كاتـب موهـوب. سـفيان هـذا قـد يحـدث لكـن لا يجـب أن تستسـلم، حاولـت بجـدّ أن أسـاعدك.. ليكـن هـذا كل مـا في الأمـر..»

شـكرته، مدعيًـا بكثـير مـن الألم أني سـعيد بهـذا الخـبر، بهـذا التطـور، مدعيًـا أيضًـا أني لـن أنـسى جهـوده المثمـرة:

- «في أمان الله، صديقي».

طبعًـا هـذا غـير صحيـح بالمـرّة، كيـف أصدقـه وأكـذب نفـسي؟ كيـف أصـدق تلـك النتيجـة التـي اسـتخلصها مـن حـوارات ولقـاءات وأخـيرًا «راس الكيلـو» الجـلاد؟ مـا دخـل جـلاد في حيـاة ضحيـة يائسـة؟ أنـا الـذي يـرى شـخصيات ورقيـة تنـزل مـن السـقف، تدخـل مـن شـقوق البـاب، مـن خلـف سـتائر النافـذة التـي ثبتتهـا بايـة قبـل أيـام فقـط، كيـف أصـدق أني كتبـت مثـلًا فصـولًا عـن ليليـاتي أو تلـك الفصـول التـي امتدحـت كثـيرًا الرجـل المسـنود الملقـب بالرجـل الحديـدي؟

مـع ذلـك شـكرته. هـل كنـت أنـزف في داخـلي؟ هـل أحسـت بايـة بـأني ميـت مـن آخـر القـول المفجـع؟ وأني بالفعـل ذاك الشـخص الـذي اسـتغل سـيرته وسـيرة معارفـه القلائـل وفضحهـم في «جزائـر»؟ ولم تكـن حرائـر إلا أضغـاث أحـلام بئيسـة أحـاول التسـتر عـلى أفعـالي الدنيئـة في أول تجربـة أدبيـة؟

خرجت بلا تعقيب أو تذمر يذكر، وواثقًا جدًا أن هشامًا هو الشخص الآخر، لا يختلف عن شخصياتي الورقية التي كانت تتسلل من السطور الأخيرة في هذه الصفحة أو تلك، هو بالتأكيد يحمل تلك الصفات القبيحة التي رأيتها في كذا مشهد، أحدنا هزمته الحكاية لا المرض. لم يكن هو الذي أعرفه، أو لمَ لا يكون هو، هشام المسكون باللعبة السردية هو الآخر؟ معترفًا لي كذا مرة برغبته في كتابة كتاب أسود يليق بمرضاه، لمَ لا تكون تلك اللهجة والوصفة الجاهزة تتدخل ضمن لعبته الأخيرة؟ ليدخل الشك في سرائرنا ونستزيد من جلسات أخرى كما يستزيد قراءاتنا من الداخل، أليست محاولة من نوع آخر بشد الحبل وإرخائه وحصارنا بكذا احتمال لنتشبث به كمخلص لهوسنا؟

هذا ممكن.

أكثر من مرة ونحن في مقهى «المسرح الصغير» بالضبط في المكان الذي يلتقي فيه «راس الكيلو» في ساعات خارج الدوام، يسمعني بالمجان، أو أسمعه وهو يستجوبني حول قراءاتي سابقًا، عن أهم الروايات التي قرأتها، أكون متحررًا من السرير من أسئلة حرجة تتعلق بالماضي الشخصي، في المقهى أكون أنا، الكاتب الذي تخلى عن مشروعه الضخم. عن طريقتي في الكتابة، وأهم ملهماتي: ليلى، منار، غادة.. كان يسمعني لا كطبيب بكل تأكيد، كعاشق أضنته قصة في بدايات حياته المهنية. هشام لا يخفي انزعاجه حقيقة من شيء ينغّص عليه حياته: الماضي.

كان متحفظًا في اللقاءات الأولى، يدفع ثمن المشروبات بسخاء، يطالبني بالمزيد من الكتب التي امتلكها، أذكر أني جلبت له ذات مساء ممطر روايات: حزن وجمال، الآخر مثلي.. وليمة لأعشاب البحر.. في آخر اللقاء الباهت، لم أقل له بالفعل أني كتبت فصولًا من حرائر، أجل سيد هشام عبدي المحترم، لقد تمكنت من كسر حاجز الخوف، ربما كنتَ السبب في ذلك، كانت الأوراق العشر التي كتبتها أخيرًا بخط يدي في محفظتي الجلدية، كان الطبيب ثقيلًا، تخلص من ثرثرتي بكلمات مزعجة للغاية.

تفطنت باية إلى غضبي الذي كتمته رغم كل شيء، بينما هي كانت سعيدة، فتحت شهيتها للثرثرة المجانية في شوارع المدينة، لا تكف عن التحديق في وجهي، تقلقني بأسئلتها الكثيرة على غير العادة، لم يعجبها أخيرًا صمتي. أخيرًا قالت:

- «هل أغضبك الطبيب؟»

- «لا، وأنت؟»

- «لا».

صمتنا للحظات، أحدنا لا يثق في الآخر بهذا الخصوص، من مواجهة كانت على ما يبدو حاسمة بالنسبة للطبيب إذ سألتها، ثم لأني شممت نوعًا من الخيانة، نوعًا من الشرح كان سببًا رئيسًا في وقاحة هشام عبدي:

- «فيم سألك أنت؟»

- «طبعًا عنك، عن سبب كراهيتك لي، عن شكوكك».

- «كراهيتي لك؟»

- «نعم، تفاجأت، لعلك أخبرته أنك تكرهني؟ أو تشك فيّ؟»

- «أنا؟ قال لك ذلك؟»

- «ليس تمامًا، لكنه أصر على أنك تكرهني، ثم عاد بي إلى أول سنة زواج؟»

- «تبًا، حقير».

كان صوتها حياديًا، لا لون له ولا طعم، كأنها ثأرت مني في تلك الساعة التي سألها عن أول سنة زواج. سألتها بغيظ:

- «كيف أجبته؟ أصلًا لماذا أجبتِ عن أسئلة خاصة؟»

- «قال لي سيفعل ذلك من أجلك، لمصلحتك».

- «وصدقته؟ وصدقت أني قلت له يومًا: أكرهك؟»

- «ممكن، ثم تحدثت بصدق عما أعرفه».

- «ماذا تعرفين بربك عن مأساة لستِ طرفًا فيها؟»

عادت إلى صمتها الذي أكره في كل الحالات، كأنها ضجرة فعلًا من هواجسي وأسئلتي الضحلة التي لا تقدم شيئًا في الموضوع.

- «نذل..»

في ذاك المساء المشحون اضطرابًا وهروبًا من عينيها البراقتين جدًا، لا تتردد في مدّي بالقهوة أو تجلس قريبًا مني، أو تتمايل أمامي أو ترميني بسؤال يضيع في الهواء، إلى أن قالت:

- «ربما الطبيب اليوم غاضب جدًا ليس بسببنا، بل بما هو أسوأ. «إيه» أخبرتني زبيدة بشيء فظيع، فظيع يا سفيان. ألم يخبرك عندما دخلت؟»

- «لا، كان وحشًا..»

- «هل رأيت تلك التي خرجت قبل دخولي؟»

- «أجل، رأيتها نعم».

- «قالت زبيدة هي التي ورطت الطبيب في مشكل لا أول له ولا آخر، في الصباح جاءت إليه لتعلمه بخبر حملها».

- «ما دخل الطبيب في ذلك؟»

- «ممكن ورطته، قالت زبيدة تلك الأفعى كانت تتردد عليه كل مساء، ثم تختفي لتعود إليه في نفس الميعاد».

- «ما معنى ورطته؟ لم أفهم؟»

كانت باية كتومة في مثل هذه المواضيع، هي نفسها لم تفهم معنى التورط، كيف تتعرى امرأة لشخص غريب؟ كيف تفتح رجليها له؟ أن يلجها.. لم تفهم كيف استطاعت مريم أن تفكر في شيء قذر كهذا وفي

عيـادة تسـتقبل يوميًا مـرضى مـن كل الجهـات؟

قالت:

- «لا أعرف، زبيدة لم توضح. ممكن أحبته وممكن ذهبا أبعد».

- «ذهبا! إلى أين؟»

- «أوه، دعني منه ومنها».

- «يعني جامعها؟»

- «هذا ما قالته زبيدة».

- «فقط؟»

- «ربمـا هـي حامـل، سـمعتها زبيـدة تقـول ذلـك، لكنهـا اسـتبعدت فكـرة الحمـل، ربمـا تلـك المـرأة تريـد اللعـب بأعصـاب الطبيـب، هـي كذبـة لا أكـثر».

- «لا يمكن..»

لا أعـرف مـاذا أقصـد بعـدم الإمـكان. أقصـد مـن؟ هـو أم هـي أم الفكـرة الجهنميـة التـي زرعتهـا زبيـدة في ذهـن بايـة؟ بايـة غـير مهتمـة. لا أعـرف. المهـم تلـك الليلـة لم أنـم. فكـرت بحـق في تطـور غـير منتظـر عـلى الإطـلاق. في آخـر الليـل قـرأت مـا كتبتـه بفـرح ليقـرأه هشـام عبـدي، في آخـر لحظـة لم أقـدر عـلى منحـه تلـك الأوراق التـي أسـعدتني كثـيرًا.

-٢-

سنوات وأنا في حالة انتظار رهيبة، لحظة إبداع معلقة إلى إشعار آخر، سنة تلو أخرى، بدايتها كانت صدمة إضافية عقب إخراج مكتبتي من غرفتي لأسباب تتعلق بالأمن المتدهور في ضواحي «ب» التي عرفت المداهمات الليلة من طرف إرهابيين أو مجرمين، وُضعت كل الكتب داخل أكياس بلاستيكية وعلب كرتونية، الأم قررت وكانت حازمة على الأقل في تلك المرة. وقفت أمام سريري تخبرني بما حصل في ضواحي مدينة الشلف، في الأخضرية، بالقتل الجماعي الذي مارسته جماعات متطرفة.. كنت أصغي باندهاش لتلك الأحجيات أو الوقائع المدمية، غير معني بالأحداث الدامية وما علاقتها بمكتبتي الصغيرة التي أعشقها، كيف لي أن أفرغ غرفتي من كتبي، روايات كنت أستضيء بها ليلًا، كيف لي أن أنام في خراب موحش بعيدًا عن أصدقائي الذين لا أعرفهم، الذين ألفتهم وأحبهم؟ باية لم تعد تثق بي. صارت تكره مكتبتي، تتأزم كلما رأتها، كأنها تجثم فوق صدرها وتخنقها، هل سببت لها كل ذلك الألم دون أن أدري؟ أو تعمدت إزعاجها بالفعل؟ كل تصرفاتي صارت مخيفة حقًا، تسرعت بإخراج الكتب والمجلدات كأنها تطهر الغرفة من النجاسة... مكتبتي الصغيرة المتواضعة تضمّ كتبًا تجلب لنا القتل والدمار، هكذا قالت أمي، أمّا والدي لم يعلق بشيء، فالأمر أعقد من وجود مكتبة أو جريدة حسب اعتقاده، فصمت، في أحسن أحواله يغادر إلى غرفته

هروبًا من مناوشات حتمًا ستندلع عندما أستجمع قواي.

كانت تختفي وراء أمي الصّارمة، رأيت فقط كيف تدفن كتبي داخل الأكياس البلاستيكية، أخفيت وجهي مستسلمًا للنوم، متألمًا في واقع الأمر، لا يعنيني هذا الفيلم السريالي العبثي، المعقد، أتناوم، في حين فقدتُ حقًا قصة عشق قوية تربطني بالكتب والروايات والحرف المطبوع الذي يأخذني إلى مملكة حقيقية.

بعد ذلك أتهرب من الجدار الأسمنتي الموحش، إلى أن ألفتُ المكان الفارغ، أحيانًا أطلب من أخي أن يمدّني برواية من الروايات: الإخوة كرامازوف مثلًا، الدروب الوعرة.. السكرية.. أقرأها نهارًا وتعيدها باية إلى مكانها ليلًا إلى أن سئمت من هذا الذهاب والإياب إلى القبو كأني أعاقبها، هكذا فهمت أخيرًا تلك الطلبات المستمرة وهي تدرك أني غير قادر على إكمال القراءة، لم يعد ذلك ممكنًا في فترة أتهيج فيها، أكون فاشلًا، ضعيفًا، لا أقترب من الماء للاستحمام مثلًا.

نسي الجميع بأني روائي وكاتب سيرة عائلة تتشرذم. حتى عائلتي التي احتفت يومًا بنشر قصة قصيرة في جريدة وطنية تناست كل ذلك الهبل الجميل الذي يشوبه أحيانًا نزاع بسيط بيني وبين باية، أتفهم صمتها وانزعاجها من كتابتي الأولى الموسومة ب»آخر قصاصة«. أما والدي ينقل أخبار المتطرفين الصاعدين إلى الجبل، كانت ظاهرة جديدة مرعبة، لم تكن قط في الحسبان، تحولت أطراف مدينة «ب» الجبلية إلى مرتع للمتطرفين، يقررون ما يشاؤون، أولًا منعوا التدخين، ثم منعوا وصول

الجرائـد إلى المدينـة، غلقـت المكتبـة الرئيسـية لاحقًـا، في أعقـاب ذلـك المـدّ حُـرق المركـز الثقـافي الوحيـد نهـارًا. قتـل كل مـا لـه علاقـة برجـال الأمـن أو الجيـش في فـترات متقاربـة جـدًا.

سـنوات طويلـة كنـت في نفـس الغرفـة، يؤلمنـي منظـر المكتبـة الفارغـة، التـي تحولـت مـع مـرور الأيـام إلى خزانـة لملابـسي وجـواربي وقمصـان تحشـوها بايـة حشـوًا مريعًـا، لتحـدث تشـوّها في ذاتي، كلـما رأيـت ذاك المنظـر أغـط في النـوم العميـق، أتمنـى ألا أسـتيقظ نهائيًـا، كأني أرجـئ حالـة الانتحـار إلى أقـرب لحظـة. لحظـة تـلي أخـرى، سـنة تـلي أخـرى. لم أفكـر يومًـا في مواجهـة نفـسي الضعيفـة، كـما قالهـا الدكتـور.

لم أثرثـر كثـيرًا مع بايـة، أو إخـوتي، حتـى والـدتي لم تسـألني مطلقًـا عـن مجريـات الفحـص ولِـمَ لم أشـتر الأدويـة كالعـادة، قـررتُ إعـادة كتبـي إلى الغرفـة كأول قـرار مفاجـئ، رغـم التعـب والإرهـاق، بـدأت بمفـردي إخـراج الكتـب مـن القبـو، روايـات ومجـلات وكتـب التاريـخ والأوراق القديمـة، أجنـدات، صـور، جرائـد قديمـة. سـاعدني أخـي أولًا ثـم والـدتي، أخـيرًا بايـة كالحمامـة في الغرفـة تجتهـد في ترتيـب مكتبتـي مـن جديـد، بالتأكيـد لم توافـق لكنهـا آثـرت الصمـت عـلى مناقشـتي في قـرار عـلى مـا يبـدو هـو مطلـب الطبيـب. لم تشـأ التعليـق، كانـت تثابـر لنتخلـص مـن وضـع فوضـوي لا بـد أن ننهيـه قريبًـا، بـأي شـكل، حتـى لـو بانفصالنـا، لأن التعـب أخـذ منـا الكثـير. ليالينـا كانـت بؤسًـا حقيقيًـا جـراء الخـوف والخـواء والتحديـق في الفـراغ المظلـم الموحـش وترقـب الأسـوأ.

سنوات وأنا أنتظر الضوء الأخضر من الطبيب، لأعود إلى عملي وأوراقي البيضاء التي ترعبني بمنظرها كلما رأيتها على الرّف، أو على سطح المكتب، أو في أي مكان يمكن أن أراها بكامل إغراءاتها المتواصلة، كل تلك السنوات الماضية. كنت أتمدد في نعشي الصغير مغطى بملاءة سوداء، منكمشًا، أقصى طموحاتي أن أتحوّل إلى سراب يتبخر في الفضاء، متناسيًا اسمي ككاتب موهوب، بدليل ذاك الثناء الذي يصلني من هذا أو ذاك.. والإشهار المتواصل لرواية «جزائر» كتبها الشاب سفيان عبد الجليل، القادم من الجزائر العميقة، ها هو يكشف عن الزيف، ويكتب بواقعية ساحرة، عن شخصيات عبثت بتاريخنا وبمستقبلنا. تستفزني الجمل الكثيرة الفضفاضة، تلك التي خلقت أزمتي المعقدة، أتناوم، أبكي. تجيء الشخصيات الهلامية حيث أضطجع، تبعثرني كيفما شاءت، عقابًا على جرأتي وكتابتي عنها، شوهتها تشويهًا مريعًا كالذي كتبته في حق السيد المدعو «روبير». أراه فعلًا عند عتبة البيت يشهر مسدسه في وجهي يستهزئ بي مدعيًا أن الحكومة فوضته لقتلي ببرودة دم:

- من يحميك يا حقير؟

- لا أحد. تجيبه ثقوب جسدي المفتوح.

عاد كل شيء كما كان منذ عقد من الزمن، نفس المكتب الصغير، نفس السلك الكهربائي النازل من سقف الغرفة إلى أعلى المكتب بقليل، ركبت مصباحًا صغيرًا جديدًا فولت ٢٥، أحطته بورق مقوى حتى لا

أزعج باية ليلًا. هي ليلتي -بلا شك- كنت أغني أغنية كيفما جاءت، كلمات أرميها في الهواء، كالبهلوان على حبلين مشدودين، في محاولة جادّة لخلق نفس الأجواء التي صنعت «حرائر» روايتي لا «جزائر» المشوّهة، للعنوان قصة أخرى جميلة، هي صورة فوتوغرافية التقطها مغامر أوربي منبهر بوجوه سمراوات، وتلك الصلابة والإصرار لفتيان الجزائر في القرن التاسع عشر، في شارع من شوارع مدينة البويرة قد يكون شارع «سترسبورغ» كان الشارع ذكوريًا بامتياز، لكن خيالي الفتي الجامح أدخلني في رؤوس أولئك، الصغار في أثوابهم البالية، أتوا من أين؟ ربما أحدهم من قرية «إيفري» المعلقة في قمة الجبل، أكيد هو يوم سوق شعبي سنة ١٨٥٣م، قلت وراء كل فتى من فتيان الصورة الفوتوغرافية امرأة تدفعه ليقاوم اليأس، قد تكون أمه، أخته، حبيبته، عشيقته.. هي نفس الصورة تقريبًا في صبيحة الثالث من أكتوبر العظيم مع اختلاف بسيط. كيف لشارع ذكوري كهذا أن يتحرك صوب قلعة شيخ البلدية والرجل الحديدي؟ بينما عشرات أو أقل من مخبريهم اعتلوا الشرفات منهمكين في تدوين أسماء المتظاهرين. رأيت حرائر في عيونهم البريئة. هكذا اخترت العنوان الرومانسي «حرائر» العنوان قد يصعب إيجاده وتنهي نصك في غيابه لمدة طويلة، يستعصي عليك إيجاد كلمة أو كلمتين لتلخص كتابك، قد يأتي قبل كتابة ولا كلمة من مشروعك، يداهمك وأنت في السرير في الشارع، في مقهى شعبي بسيط، أو تراه يتراقص من لوحة فنية، من صورة من مشهد واقعي.. كتبت كلمة حرائر قبل الشروع الفعلي في كتابة سيرتي التي غيرت مجرى

حياتي من مدرس عادي إلى منبوذ بسبب تلك الصفحات التي بلغت المائة، في ليلة الثامن من أكتوبر.

أخرجت حزمة جديدة من الأوراق، وضعتها على الرّف، أستعجل الليل، أستعجل المواجهة الأخيرة، قلت. نعم سأرقص. بينما الغرف الأخرى المجاورة غارقة في الصمت، حتى باية انضمت إليهم، يتهامسون، لا أعرف إن قضيتي هي التي تؤرقهم بالفعل أم هناك حدث جديد قد طرأ في غيابي، قتيل أو هجوم إرهابي ليلًا أو فجرًا.

أروح وأجيء في لحظات تشبه المخاض، اللحظات التي تسبق الإعصار، اللحظة التي تسبق ليلة الدخلة وأنت تحضر نفسك لمواجهة جسد مغزلي غامض، يثير فيك الرجولة بينما هو يتراجع هلعًا، يزداد انكماشًا نكاية في رهبتك من شيء لا بد منه، نكاية في رعونتك، في برودتك السمجة. بينما الطرف الآخر يصرخ فيك، يستجديك، يريدك محتلًا جديدًا، بكل ما تحمله من غموض وإثارة. أجلس أخيرًا، أعصر ذاكرتي عصرًا وأضع سفيان عبد الجليل وجهًا لوجه مع الجملة الأولي ذات خريف وباية تقول:

«وكلت عليك ربي.... حقير».

أحسست بوقوفها إلى جواري متشائمة من توتري غير المعلن، شعرت أيضًا بعدم رضاها من عودتي إلى مكتبي بتلك السرعة وذاك الإصرار. لم تجد مبررًا واحدًا لإيقافي، أو نهيي عن ذلك، أو منعي من فعل الكتابة بعد كل ذلك الجفاف في العطاء.

تسـترق النظـرات إلى الأوراق البيضـاء التـي بعثرتهـا، وأعقـاب سـجائر مطفـأة رغـم نصيحـة الطبيـب، أحـرك القلـم يمينًـا وشـمالًا، تناولـت سـيجارة أخـرى، أعـرف أن السـيجارة سـتخرجها مـن حيادهـا، لأن الطبيـب نصحنـي بالإقـلاع عـن التدخـين، كنـت متيقنًـا مـن شـفائي. في وقـت كنـت بحاجـة إلى دفعـة اسـتثنائية أخـيرة، أحـك عـلى فـروة رأسي، كأني أبحـث عـن أول المفتـاح لدخـول «حرائـر» التـي كتبتهـا، الأصليـة غـير المشـوهة.. أتذكـر تفاصيـل جلـوسي لحظـة بلحظـة، سـبب إقدامـي عـلى فعـل ذلـك، تلـك الشـموع التـي أشـعلتها بينـما بايـة تنـام في الجـوار تترقـب مصالحتـي، أتذكـر جموحـي الأول في كتابـة أكـبر عـدد ممكـن مـن الكلـمات في الليلـة الواحـدة، أسـوّد الصفحـات كلـما تقدمـت في الكتابـة شـعرت بالرضـا والقلـق في آن واحـد، كيـف أشرح ذلـك لبايـة؟ كيـف أوقظهـا في الليـل لأقـول لهـا أن جعفـر (سُـميَّ لاحقًـا بجعفـر الرويـال) هشـمته بجـرّة قلـم؟

أجـل، سـيعرف العـالم بعـد اليـوم أنـه مجـرد بيـدق في لعبـة أبـدع فيهـا الكبـار دون سـواهم، قبـل أن أكـون بيدقًـا حقيقيًـا في لعبتهـم الكبـيرة. كيـف نسـيت كل تلـك التفاصيـل يـا سـفيان الكهـل؟

كيف نسيت رواية جميلة قد بدأتها بجملة طويلة؟

-٢-

ازدادت كراهيتـي للطبيـب الكهـل، قـررت ألا أعـود إلى عيادتـه الوسـخة أبـدًا، كنـت أقولهـا في قـرارة نفـسي أو في حلـم أو في ورقـة كانـت جنبـي. إلى أن سـمعتني بايـة أصرخ ليـلًا، كأن كوابيـس الليـل عاودتنـي في ليلـة تخليـت عـن المهدئـات فعـلًا بقـرار شـخصي حقيقـي قـوي. اسـتيقظت أخـيرًا، كنـت مرعوبًـا مـن لا شيء في الواقـع، لم تشـأ بايـة الحركـة بعـد منتصـف الليـل، والليـل مخيـف... الربـع الأخـير مـن الليـل كنـت رفقتـه، لعـلي رأيتـه في الحلـم يتشـبث بي ألا أتركـه وحيـدًا. أبـدًا.. أبـدًا.. اسـتيقظت عـلى كراهيتي للمدينـة، للعـار الـذي سـيلحق بالعيـادة التـي ارتبطـت بي وببايـة. تمنيـت تلـك اللحظـة أن تنفجـر العيـادة. تيقنـت مـن اسـتيقاظها دقائـق بعـد ذلـك مـدت يدهـا اليمنـى لاحتضـاني، كـما تفعـل كلـما أعجبهـا تـصرفي أو ردّة فعـلي غـير المتوقعـة. فرحـتُ وفرحـتْ مـن اسـتجابتي اللامشروطـة بأسـئلة تعكـر صفـو اللحظـة.

صـادف تلـك الأيـام الشـتوية البـاردة تنقـلي رفقـة بايـة إلى قريـة إيفـري، لزيـارة أهلهـا والاسـتمتاع بجـو الريـف الهـادئ كـما تـبرره هـي، وجهـة نظـر مقبولـة في غيـاب حلـول حقيقيـة لمشـكلتي الشـخصية، قلـت نعـم، كانـت القريـة هادئـة كـما كانـت منـذ ألـف سـنة، لم يقلقهـا الرعـب الـذي يصنعـه الإرهـاب في كل مـكان، بينـما أوراقـي التـي كتبتهـا ترافقنـي، قلـت لعـلي

أواصل حكاية السعيد الدّق، لعلي أصل بالتدريج إلى نصي الأول رغم أنف الطبيب وراس الكيلو الذي حوّل حياتي إلى جحيم حقيقي. لم أكتب شيئًا مما توقعته أو انتظرته بكل تلك الرغبة الملحاحة، في الواقع كنت مجبرًا على النوم من شدة البرد. أتكور تحت الأغطية مفصولًا تمامًا عن قضيتي الجوهرية، في الصباح الباكر بعد ليلتين أو ثلاث أنهيت في رسم خطوط عريضة لقصة قصيرة عنوانها «المشاة الميتون» لا أعرف لِمَ حزنت بعد كتابتي الصفحة الأولى، صحيح مكتملة في ذهني لكنها أبت الاكتمال، أمسيت حزينًا، شبه بليد من فرط الغمّ الذي حاصرني لا فكاك منه حتى ولو تناولت منومًا شديد الفعالية. قالت باية أني نمت باكرًا، لعلها كانت تريدني أو ترقبت صحوي مع الفجر كما أفعل عادة، آلمني انتظارها، آلمني موتي ذاك بغير داعٍ. في اليوم الرابع أو الخامس ظهرًا، رنّ هاتفي.. توجست من الرقم، لكني أجبت بغير تعجل:

- «نعم..»

- «مرحبًا، أنا بشير، المدعو راس الكيلو».

ليست كذبة أبريل لأننا على بعد ثلاثة أشهر من أول أفريل. وليست دعابة قد تكون لِم لا؟ قد يكون هشام من استعمل هذه الحيلة الوقحة ليبرر ما توصل إليه بشأن أوهامي.

سمعته يقول:

- «ألو، سفيان؟»

- «نعم، ماذا تريد؟»

حاولت أن أكون جافًا، ثقيلًا، غاضبًا، عدوانيًا، لا تزال صدى كلمات «المشاة الميتون» في ذهني، كتبتها عن مجرمين يتباهون بالبنادق الخشبية..

- «أتأسف يا سفيان لأني أحدثك في أمر خطير جدًا».

- «أي أمر؟»

- «صديقك هشام».

- «لمعلوماتك هو ليس بصديقي، عليك بإخباره إن شئت، لن أعود إلى عيادته، ماذا أيضًا؟»

سكت، كنت متيقنًا أنه يضحك، لأن اللعبة قد بدأت بيننا حقًا. أريد أن أكون منتصرًا عليهما.

- «ألو، اسمعني سيد سفيان، أكلمك من مستشفى المدينة، بكل أسف صديقنا المشترك هشام عبدي أصيب بضربة قاتلة، إنه بين الحياة والموت».

لم يقل أكثر من جملة طويلة، تحتمل الصدق والكذب. جملة مشؤومة بالنسبة لمرضاه رغم أخطائه، أنا أولهم، صدمت، خرجت من إيفري مرعوبًا، بينما باية بقيت إلى جوار أمها تدعو له بالشفاء.

كانت ساحة المستشفى غاصة بمرضاه، بفضوليين وصحفيين محليين،

برجال الأمن الذين يصدون محاولتنا للدخول إلى قسم الاستعجالات، تبدو عبير في الرواق الطويل محاطة بصديقات أو ممرضات، أراها لأول مرة، طويلة، بدت عليها أعراض الشيخوخة في لحظات، بدت التجاعيد والهلع في عينيها الجامدتين. «راس الكيلو» كان قريبًا منها وقريبًا من الباب الذي يفضي إلى قاعة العمليات، يروح ويجيء أمام أفراد الشرطة غير عابئ بتحذيراتهم، وشوشات وأسئلة نسمعها من هذا وذاك، أسئلة.. أسئلة.. غموض يلف القضية، يقول أحدهم كان بمقربة مني. أحدهم لعله يعرف هشامًا أكثر منا إذ أسمعه يتحدث بإسهاب عن الطبيب الذي ساعد الجميع بدءًا من مساعداته لبناء مسجد عمر بن الخطاب إلى مشاركته الفعالة في مساعدة جيرانه والأرامل واليتامى. لم أعرف هذا. لا أدري إن بكيت. بالتأكيد تقول عيناي المتورمتان جدًا بعد ذلك. حيث رأيتني في المرآة متورمًا بشعًا مهزوزًا كأني فقدت نصفي الآخر. هل هو نصفي؟ لم أسأل قبل ذلك من يكون هذا الدخيل الذي يبحث في دواخلنا عن عقدنا وألغاز دمرت حياتنا، لم أسأل قط لماذا كان ودودًا بذاك الشكل المتحضر وهو يلاطفنا ويزرع فينا الأمل؟

رأينا جميعًا سيارة الإسعاف عندما نقلت جسد هشام إلى العاصمة، عبير رافقتها إحدى صديقاتها مع زوجها خلف السيارة وزعيقها أيقظني من بؤسي ويتمي. لم أجد طريقًا للخروج من فوضى أناس جاؤوا من كل صوب. تحركت خارجًا، لحق بي راس الكيلو بجثته الضخمة ورأسه الحليق إخفاءً لصلعته. يوهم الناس الذين لا يعرفونه بطيبته وإنسانيته

بدليل وجوده في المستشفى تعاطفًا مع عائلة الطبيب ومرضاه. تمنيت تلك اللحظة.. لا شيء.

وجدت نفسي وحيدًا في زقاق متعرج يأخذني رغم أنفي إلى شارع ستراسبورغ، وقفت قبالة العيادة، لا تزال سيارة الشرطة رابضة قرب الباب الرئيسي. بالتأكيد آخرون داخلها، لرفع البصمات. لمَ كل هذه الشخصيات التي تتحرك صعودًا ونزولًا. ثم أخذني الوهم لعلي أجده هناك حيث ينتظرني في مقهى المسرح الصغير. بالفعل تراءى لي من بعيد أنه في نفس المقعد حيث أدار رأسه إلى الكنتوار وظهره للشارع ربما لأنه كان غاضبًا مني، غضب هشام من تصرفاتي الأخيرة طيلة أسبوع لم أشأ الرّد على مكالماته الكثيرة. بالفعل كان هو بقامته المديدة وانهماكه الدائم في تسجيل آي فكرة تخطر على باله، هكذا كان يفعل أمام فنجان قهوته. دائمًا له ما يكتبه في كناشات صغيرة، يومًا سألته لمَ تفعل ذلك؟ أجابني بمقولة قرأها في رواية «الحب في زمن الكوليرا» من لا ذاكرة له فليصنع ذاكرة من الورق، لم أقرأ حينها تلك الرواية الكبيرة، تفاجأ هشام كيف لم أقرأها، يومان بعد ذلك وجدت تلك الرواية الكبيرة بين يديه في المقهى، مع شرح مطوّل لارتباطه الشخصي برائعة لن تتكرر في الأدب العالمي حسب قوله...

دخلت المقهى، اتجهت حيث كان يجلس هشام، فاجأته بفرح صبياني لافت لكل الزبائن الذين حول الطاولات والوجوم يسكنهم غير مصدقين ما حدث، هل حدث شيء ما ولم أعرفه؟ التفت الشخص الذي

لم يكـن صديقـي هشـام، هـو شـخص آخـر لا يشـبهه في شيء. صدمنـي منظـر الشـخص وهـو يحـدق في وجهـي شـبه غاضـب، شـبه ثمـل، شـبه متـورم.. اعتـذرت للشـخص. في الحقيقـة وددت لـو أدخـل معـه في حـوار لأنـه جلـس في المـكان الخطـأ، الطاولـة هـي طاولـة هشـام.. أخـيرًا تراجعـت. أخـذت مـكاني في مقعـد مجـاور أترقـب نهـوض السـيد المحـترم الغـارق في قـراءة مجلـة عـلى مـا يبـدو علميـة باللغـة الأجنبيـة حتـى لا أقـول بالفرنسـية، ليكـن... كان متباهيًا. ليس مهما أقول. قبـل أيـام قلـت لـه (أقصـد هشـام) أنـه كان هنـا، هـل تذكـر؟ يتذكـر جيـدًا تلـك المقابلـة الأخـيرة في المقهـى، حدثتـه عـن مكتبتـي الصغـيرة التـي سـتأخذ مكانهـا مجـددًا في غرفتـي، قلـت لـه أني سـأفرض عـلى أفـراد عائلتـي أمـر الواقـع، سـأكتب الليلـة مهـما كلفنـي مـن أمـر. ربمـا كان منشـغلًا بعـض الـشيء، لم يهتـم كثـيرًا بثرثـرتي المسـائية الغامضـة عـن مشـاريع كـبرى أنـوي كتابتهـا بعـد أيـام. السـيد الـذي أخـذ مـكان هشـام لم يشـأ النهـوض إطلاقًـا، الوقـت قـد تأخـر.

في صباحـات المدينـة القليلـة التـي أقصدهـا عـلى أمـل اللقـاء بـه في الشـارع الطويـل الممتـد، في المقهـى، أو قـرب سـينما الريـش، عندمـا أشـعر بتعـب في ركبتـي وفي قلبـي، أدخـل المقهـى أخـيرًا. أجلـس في نفـس المـكان الـذي يجلـس فيـه سـيد هشـام، أتصـوره قبالتـي، أضـع جرائـدي، أخـبره باسـتحياء عـن يومياتي الكئيبـة، لا أجـد الكلـمات المناسـبة التـي تـردم الفجـوة بيننـا، أعـاني يـا هشـام حقيقـة مـن فـك شـيفرة الولـوج إلى نـصي الأول أجـل واللـه، كلـما اقتربـت مـن الجملـة الأولى تختفـي الصـورة والصـوت

مـن شاشـاتي التـي نصبتهـا مـن قبـل، منـذ شـهر وأنـت تدفعنـي بـكل قـواك. يفاجئنـي الخـواء، فيتسـلل الـبرد إلى الذاكـرة، صحيـح أقحمـت نفـسي في غابة مـن الكلـمات والأسـئلة والأوجـاع والحنـين واليتـم، لكـن تلـك التـي أبحـث عنهـا اسـتعصى مجيؤهـا إليّ حيـث أترقـب فيمنعنـي الهذيـان أحيانـًا، أبنـي وأهـدم وأتـرك الأمـر للبيـاض يحـل محـلّ الجمـل الواجـب كتابتهـا. فأبـكي.

صوتـه ليـس غريبًـا وهـو يضـع يـده للمـرة الأخـيرة عـلى الجـرح: ليـس مهـمًا أن تلـج النـص مـن أي بـاب آخـر، كل الأبـواب تـؤدي إلى حرائـر، ألم تقل أنـك كتبـت في الأصـل عـن الطوفـان بـدل النـدرة؟ جـرب. سـأجرب. لم يكـن هـو مطلقًـا، صوتـه خافـت... بعيـد. يختفـي بـين الظـلال.. سـعدت بلقائـك مجـددًا، لم يجبنـي. إذا بشـخص كرهتـه طيلـة عشريتـين أراه يقـترب منّـا، يقـترب منـي أكـثر، كأنـه جـاء في وقـت متأخـر مـن مسـاء ذاك الخميـس، لتصفيـة كل الحسـابات القديمـة، بـل أصفـي حسـابي معـه، يتقـدم بثقـة عميـاء، بتثاقـل أيضًـا.. صعـب أن تلتقـي بخصمـك الحقيقـي، صحيـح. نعـم أقـول للطيـف. لم يـرد فاختفـى ليحـل محلـه الآخـر، بصلعتـه، عفـوًا بقبعتـه التـي أخفـت تشـوهات رأسـه بتلـك البقـع الحمـراء والبيضـاء.

يده وصلت أخيرًا إلى يدي. مصافحًا لي:

- «سلام صديقي».

رفعـت بـصري في الوقـت الـذي صافحتـه بـبرودة دم. بـلا شـوق للقـاء، حتـمًا سـيكون ظهـوره أمامـي في هـذا التوقيـت مـضرًا للكتابـة ولبقيـة يومـي في عامـيّ الجديـد..

سلام صديقي. أعاد تحيته الثقيلة.

أهلًا. قلت.

في مشهد يتطلب الكثير من الإعادة لإظهار الحقد الكبير الذي أكنه له. لأتصوره من جديد وهو ينظر إليّ من بعيد، كنت أنا بالفعل، بتركيز شديد يحدق من الخلف، أعطيته ظهري قبل أن يغادر هشام شاشة عملاقة كنت أراه وحدي. هيه، باي قلت له مبتسمًا للمفتاح الذي قربه من يدي. ثم دلف المقهى، خطوتان كافيتان ليكون أمامي. حدّق في وجهي للمرّة الثالثة.

سلام صديقي، مصافحًا يدي التي أصابها الشلل برهة.

أهلًا.

جلس بغير استئذان، مستفزًا، سمجًا للغاية إذ يطلب قهوته من النادل، وقارورة ماء، مدعيًا أنه يعاني من مرض السكري، الماء ضروري حتى ولو في يناير البارد. أضاف:

- «عرفت أنك تكون هنا. يوميًا أجيء هنا، مثلك لعلي أجده ينتظرني. للأسف لا نجده. أرأيت كم نحن يتامى؟

نعم.

جاء النادل بقهوته، طلب لي قهوة أخرى رغم اعتراضي، كأن النادل يعرف صرامة راس الكيلو. نفذ طلبه دون أخذ رفضي بعين الاعتبار.

لم يجد الدركي السابق مدّ جسور الحوار سهلًا، تمنّعي ربما مردّه الألم الذي سببه ليلة التاسع من أكتوبر، ثم التّجني الكبير بعد عقدين وهو يسمّم صديقي هشام بنكرانه لقائي تلك الأمسية الخريفية ومصادرته التاريخية لأوراقي المائة المكتوبة بخط اليد. أخبرني بحزن عن هشام، كان رفقته في الأسبوع الأخير، الدركي السابق لغته الصعبة تجعلني في البداية أنفر من لغطه، من ثرثرة حقيقية ممزوجة بندم، بكاء مرّ غير مرئي ولعاب يتطاير مع كلماته التي تسقط من شفتيه كالحجارة. اللعاب أحيانًا يصل إليّ، يضطرني الموقف ألا أتحرك مخافة إحراجه، هل يتحرج أصلًا؟

أضاف راس الكيلو:

- «لم ألحق لأصحح كذبتي التي تخصّك سيد سفيان، آه، وعدته بالحديث في الموضوع لكننا أجلناه مرات. أخيرًا، لم أعلم حقًا كل الحيثيات عقب مصادرة الأوراق. لا عليك، المهم الزمن.. الزمن منحك فرصة أخرى، كل هذا الوقت، لتقول جرحك مرة أخرى. لا أعرف إن تسامحني أم لا. أقول لك كرجل أمن، كصديق لصديقه: معذرة سيد سفيان، لأني سرقت حلمك، أوراقك السرية، ربما لولا تلك الحركة السخيفة التي قمت بها في لحظة طيش، في لحظة قيامي بواجبي كرجل أمن وقائد في لحظة صعبة، ما كنت الآن تنعم بالحرية والصحة. قمت بواجبي أمام شخص يمثل الخطر الحقيقي لنا، للجزائر.

صديقي، ربما كنت جبانًا في أكثر لحظة من لحظاتي التاريخية التي

استنفرت فيها ذكائي وخبراتي. لم أكن أعرف ما أفعله وأنت تضع كنزك أمامي ذات يوم، كأنك تمتحنني بكل قسوتك تلك، بكل أنانيتك تلك، وأنت تترجاني أن أحفظه من كل سوء، كأنه أحد أبنائك.. أقول كل شيء لعلك تعذر وقاحتي، خياناتي، كل شروري...

أكون صريحًا جدًا معك بعد كل هذه السنين الحمراء والسوداء، نعم سرقت ما لا يجب أن يسرق، ما قمت به حركة سخيفة لا معنى لها لكني فعلت، ليست سرقة أبدًا وأنت وقعت في حاجز أمني في ساعة خطرة، رأيت فيك كل الشرور، كل تلك الإصابات التي تتلقاها عناصري من متظاهرين غير سلميين، كانت المدينة في ذروة همجيتها ودمويتها، كنت وسط مدّ بشري هلامي يصعد إلى السماء الأولى ينزل بنا إلى الحضيض، لا أعرف وأنت لا تعرف أيضًا، متأكد من هشاشتك، من سلميتك ورقّتك لكن تلك الساعات الأولى من هيجان شعبي في مشهد سريالي، فوضوي أراك مثلهم، لا تختلف عنهم في شيء.. فارون من ألسنة النيران، يتماوجون، يندفعون، أراه بعيدًا قريبًا.. كنت خلفه، أمامه، المد البشري في حالة هيجان مدمر، شعارات ودماء.

أتذكر؟

كنا لا ننام، كنت تتبختر كأنك تبحث عني لتشوهني بقلمك.

عندما وقعت بيننا لم أر سوى أوراقك الثمينة لعلي أجد اسمي ضمن ضحاياك. الحقيقة نعم قرأت مخطوطك في تلك الليلة، قرأت بعشق، أبحث عن قصة عشق، عن شيء يذكرني بهند، بطفولتي، يخال

إليّ أنك تعرفها أيها الوغد، رأيتها في مكان ما في «ب»، صرت أكرهكم، ما أثار انتباهي في تلك الجمل القصيرة، قدرتك على تحويل تلك المشاهد الجادة إلى مسرحية هزلية يبدع فيها أشخاص من وراء الستار؟ هل هذا ما تسمونه السهل الممتنع؟ مع ذلك اكتشفت كذا خطأ إملائي، مثلا فالعنوان ربما من فرط التسرع نسيت نقطتين هامتين في الجيم والزاي، كتبت حرائر بدل جزائر. لم أشأ إرسالها بلا نقطتين. أحسدك سيد سفيان.

في اليوم التالي حوّل ملفك إلى دائرة أعلى، قيل لي شخصيًا إنها مجرد أقصوصة كتبها شاب حالم. نعم ربما الشيء الوحيد الذي لم أفوته مطلقًا أني صورت الأوراق، مجرد تسلية قلت لمعاوني، نسيت أمرها بين أوراقي الكثيرات في مكان ما، والله لا أذكر شيئًا عنها لولا الدكتور الذي ذكرني بك وبكآبتك. تفاجأت بالدعاية السخية لرواية كانت تنام في درج مكتبي لفترة طويلة قبل أن أغير لها المسار الذي يجب أن تسلكه، أيام أخرى وصل عدد هائل من النسخ إلينا وإلى كل الدواوير، والتلفاز الوحيد كل ليلة يتحدث عن «جزائر» كتبها الشاب، الابن البار سفيان عبد الجليل.. هذا يؤلمني؛ لأني سرقت حياتين، حياتك وحياة الرواية.

تجدني اليوم أسرق من عمري ساعات أجلس كأني أملك العالم فأستمع وأقرأ هذيان شخصين في العتمة، في الدهليز الذي يفضي في الأخير إلى الموت. أنا وأنت.

صدقني..

-٤-

ربما كانت بداية «حرائر» بهذا الشكل:

كانت مدينة «ب» تغلي غليانًا لا مثيل له على الأقل بالنسبة لجيلنا الذي ولد بعد الاستقلال، معظمنا لم يعش لحظة الانفلات الأمني سنة ١٩٦٣ واقتتال الأخوة الأعداء، فخرج الشعب عن بكرة أبيه مرددًا في شوارع المدن الكبيرة: «سبع سنين بركات، سبع سنين بركات». ربما هو الشعار القوي الصادق الذي أخمد ثورة جديدة آنذاك. هذا ما أحسست به وأنا أقرأ ذلك في جريدة قديمة، لاحقًا قرأته في كتاب تحليلي مهم فكّك بجدّ اللحظة التي فجرت الوضع قبل الخامس جويلية بقليل.

«ب» في لحظة استثنائية صيفية من تاريخها كمدينة هامشية مليئة بالتفاصيل والهوامش الكثيرة مهدت لميلاد جبهة خفية تحركها وتغذيها الإشاعات والندرة -ندرة السكر والحليب والسميد والأدوية- والنكت العجيبة عن الزعيم والعصابات التي شكّلت بؤسنا. أخذ المدّ الهزليّ بعدًا تصاعديًا عن شلة الرئيس ونجله الذين احتلوا ذات صيف المنطقة السياحية «تيكجدا». كان مجرد خبر بسيط ليتحول إلى حدث مهم يغذي يومياتنا بجديد تصنعه الإشاعة بامتياز، لكن من قال أنها إشاعات؟

كنت منغمسًا كليةً في ترتيبات العرس ومنغمسًا أكثر بعد الزواج، لم

أنتبه بالفعل إلى ما يحاك في السرّ، وهو أمر صعب للغاية. التيار بدأ في التحرّك، صحيح كنت مزهوًا بالبذلة الخفيفة الجديدة وبالعيون التي ترافق خطواتي تلك، ربما كنت محظوظًا بنظرات جميلات يتغزلن بي ولساني يقول أين كنتن قبل اليوم؟

كانت باية حمامة بالفعل، أنستني تعبي. أنستني مغامراتي السابقة التي يطبعها الخجل والخوف كريفي عفيف بكر. فجأة، بدأت أموري تتغير تجاهها، أحدنا لم يفهم الآخر بالشكل الصحيح... صرت أنزعج عندما تغير فساتينها، أكره التنورة الحمراء التي ترتديها صباحًا، صرت أتساءل: هل زواجي كان مجرد نزوة وعليّ دفع الضريبة؟ لم أكن أقول لها تذمري، لكني لا أخفي امتعاضي من تصرفات طائشة كانت تفعلها بقصد أو بغير قصد.

تعج المدينة بالصعاليك وبالمناضلين الشيوعيين والإسلاميين على قلّتهم، الذين بدؤوا يظهرون للعلن، في باحة المسجد خصوصًا، يحولون «ب» إلى مهرجان مصغّر بين الجدّ والهزل، والنكت والتقارير والأسرار، وبعضهم تستهويه أشواط من الدومينو والورق، لكن ألسنتهم لا تكف عن السخط والسب واللعن.

طفت بشكل علني إشاعة تناقلتها الألسن، من زاوية لأخرى، خبر شبه مؤكد «أن نجل الرئيس احتل بالفعل المنطقة السياحية «تيكجدا» وبحراسة أمنية مشددة، المنطقة التي تعتبر المتنفس الوحيد لسكان «ب». يقول قائل ذات مساء صيفي:

- «رجال الرئيس ونجله احتلوا المنطقة بكاملها، رأيتهم بأم عيني التي يأكلها الدود أنهم -أي الجماعة- استباحوا الأرض والعرض ليل نهار. رأيتهم شبه عراة يا سادة، في جماع جماعي، صراخ، ورقص ومجون.. كانت فرق الدرك بالفعل تظهر مساءً في حواجز متقدمة عند مداخل المنطقة، تتعرض كل مركبة للتفتيش الصارم ثم تقفل راجعة بلا تقديم أي مبرر مقنع: «در... ولي.. در..» إلى غيرها من الكلمات الصادمة بغير داع.

أيام أخر تشكّلت الإشاعة وأخذت مجراها إلى الحقيقة المؤكدة، يمنح لها «السعيد الدّق» الشرعية، ونكهة خاصة، وبعدًا دراماتيكيًا بحركاته وحكيه المثير، حول الحصار والنساء والجسد والنهود والسيارات السوداء كالغربان تحوم حول بيوتنا. يحاصره معجبوه، يستزيد حكيًا وفنتازيا، ينقلنا هاهناك حيث يضطجع النجل رفقة من؟ يتساءل... بغرض إضحاك الجميع. يضحكون، يتخيلون المشهد بتفاصيله كما رسمه بقليل من كلماته العارية. ثم يشير بيده الخشنة إلى الجبل المحصن: «انظروا إلى جبلكم الذي يسكنه غول قادم، حفنة من الغوغاء والسفهاء. على أكتافهم النجوم والبنادق وكلاب الصيد. وداعًا أيتها الحجلات والأرانب، وداعًا بلداتنا الصغيرة المصونة.. ماذا عساكم فعله أمام الغول القادم؟ ماذا تقولون لزوجاتكم ليلًا عندما يعرفن أنكم ممنوعون من الصعود إلى تيكجدا؟ ماذا تقولون غدًا لنسائكم وأحفادكم؟

ثم ماذا تقولون للتاريخ؟

يقولها بصوت جهوري يدوي في الساحة. يدخل (س) المدعو «الرجل الحديدي» إلى المقهى، بمسدسه الذي يتدلى من خاصرته كعنوان أبدي لشرعيته التي استمدها بقوة ساعديه وجهاده، بقبعته الخضراء، مدعيًا أنها الإرث الوحيد الذي بقي لرفيقه الشهيد «سي سالم» يحدق في وجه «السعيد الدّق» الذي سكت برهة. استغل س صمت الجميع ليوجه إنذاره المبكر للسعيد وهو يقصد الجميع بزمجرته المجانية:

- «ألا تسكت أنت؟»

يقف السعيد الدّق في مواجهة قدره. ثم يقول:

- «عمك السعيد ما يسكتش، أو ميخافش، ميهربش أو ميخونش بلادو وناسو يا الرجل الحديدي الطايوان[٤]».

يخرج «س» من الحلقة وسط ضجيج رواد المقهى هربًا، والبعض الآخر يخرج إلى الساحة الصغيرة. يتضاحكون بشكل هستيري، كأنهم اتفقوا على تشكيل جدار الصّد الأول في تاريخ المدينة الصغيرة، الذي تصاعد في أول انتصار حقيقي حقّقه هذا المدّ الجماهيري الذي كان مع عمي السعيد الغاضب، يستزيد حكيًا وإشاعات وأخبارًا عن رجال السوء. كنا نتوقع وصول رجال الدرك في لحظات بعدما يشي بنا «س» بحكم أنه حارس البلدية والمجاهد وأمين القسمة منذ فجر التاريخ. كما

٤ عمك السعيد لا يسكت، ولا يخاف ولا يهرب ولا يخون بلاده وناسه يا لبلاندي المزيف.

كان يفعل كلما تأزمت أوضاع الشعب في الطوابير التي يشكلها أمام المتجر الوحيد المسمى ظلمًا «سوق الفلاح».

مرّت ساعة سلمية حقيقية، لم يخرج رجال الدرك من كتيبتهم القريبة من الساحة المركزية، ثم عاد الجميع إلى أماكنهم مع احتمال وارد أن المدعو «لبلاندي» يخطط لما هو أسوأ بعد الإهانة الكبيرة التي لحقت به هذا اليوم الأسود، من يجرؤ على إهانته أمام الملأ؟ والبعض يقول همسًا ربما رجال الدرك بالفعل سئموا من طلباته وتقاريره التي يكتبها خليفته المنتظر «بلقاسم الأحمر» المشهود له بدقة كلماته ومصطلحاته وديباجته الحزبية، التي لا تحيد قيد أنملة عن تقاليد الخطاب الحزبي الوحيد في البلد.

بالتأكيد تلك الحادثة البسيطة نشطت أحاديث جماعات على الهامش. يعجبهم عمي السعيد لا بجرأته فقط، بل بإثارة هذا القوم النائم، وجمعهم على كلمة واحدة هي «الثورة» ضد الظلم والحيف والغبن. من يدري ربما أحدهم يدفعه دفعًا، أليست مؤامرة أخرى لإلهائنا بهذا الفتات من الأخبار والإشاعات بينما الكنز الكبير سرق نهائيًا؟ من يضمن أن عمّي السعيد «المهبول» لم يكن مدسوسًا هو الآخر، طبعًا بعض المغرضين على قلتهم من يشكك في إخلاص السعيد.

ككاتب موهوب، أحلم بكتابة قصة قصيرة تجمع هذا الشتات من سحر القول. هذا حلمي الأول الذي نقلته في نفس الليلة لباية منتشيًا جدًا بكمٍ هائل من الكلمات الرمزية والرسائل الواجب قولها في قصة

تشاركني في اختيار عنوانها. لقد بدأت بعض فصولها فعلًا، تشعبت من الذاتي من ذاك الخلاف العائلي البسيط إلى ما هو جماعي. لم تكن جملي العبثية تستفز باية، بالعكس اقتربت من نافذة صغيرة، رأيت دمعة مستقرة في مقلتيها السوداوين. أدركت كم كانت كلماتي جارحة! وأنا أشتمها، أتوعدها، مشككًا في تصرفاتها، في غنائها الجميل في سكناتها. أراها تنسحب إلى السرير تتكور كدمية صغيرة، لم يعجبني قط صمتها ذاك، كانت تتمادى في الحياد المطلق، غير معنية بالمخاض الذاتي أو بتلك الأحداث البارزة في أواخر صيف أعاصيره تدك أسوار البلدية. فتدفن رأسها في مملكتها الصغيرة التي لم أرها قط، كنت أشك في خروجها من مملكتها الخاصة المسيّجة.

في الليل أتوسل إليها، أرمي يدي الباردة لحصار خصرها، لا تردها لكن برودتها وحيادها يجعلني أخجل من تصرفاتي، وقاحتي وأنا أغضبها، وأنا أشتمها. بعد الواجب العاطفي، تسكنني تلك المشاهد الواقعية، تتحول رويدًا رويدًا إلى مشاهد سريالية، كتغوط عمي السعيد أمام مرأى شرطة البلدية نكاية في الرجل الحديدي الذي لا يتورع هو الآخر في نزع بنطلونه لاعبًا بعضوه فيضحك.. يجنّ الشرطي الأول من فرط الغرابة، تتساقط أحجار السماء تلعن حكم هؤلاء الرعاة.

أقوم من فراشي أكتب بتلك المشهدية المسكوبة التي أتخيلها وحدي، وبالدّقة التي تتطلبها قصتي الأولى، منحازًا إلى سرد التفاصيل وتأثيث المكان بوجوه هامشية وعدد الحواجز والدكاكين الهشة الآيلة

للسقوط في أية لحظة، وذاك السور الإسمنتي الذي حاصر مقر البلدية، والواجهة التي يحرص العسس على تزيينها بالشعارات المخلدة للثورة عفوًا للثورة. يغيظني ذاك الاستهتار الحي اليومي في مدينة خيالية تأبى أن تكون غير «ب» تمامًا كما يغيظني نوم باية المبكر أو لما تصطنع نومها هروبًا من هذياني الصيفي في أول شهر من زواجنا؟

كانت أمورنا شبه عادية، مألوفة، تناسينا المنطقة المحاصرة بالفعل؛ لأن هناك اهتمامات أخرى بدأت تأخذ ساعات إضافية في المدينة ومقاهيها. إلى أن يسقط «السعيد الدّق» ذات فجر في طريقه إلى قلب المدينة الهادئة، يخرج فجرًا من كوخه الهش، يتناول قهوته الصباحية في مقهى المحطة في مكانه المعتاد والدائم، شتاءً وصيفًا يفضل الشرفة في مقابلة الطريق الوطني رقم ٥.

أولى السيارات وصلت إلى جثته في حدود السادسة صباحًا، مجرد لحظات انتشر النبأ الأسود «قُتل عمي السعيد». هو خبر عادي لشخص غير عادي، كأننا لم نصدق إطلاقًا أنه سيموت يومًا تحت عجلات سيارة مجهولة أو شاحنة مأجورة بتلك الطريقة الفظيعة. ليتحول المشهد المأساوي إلى مظاهرة صامتة متأججة تطالب بالقصاص.

نقلت جثته إلى باحة كبيرة، هو قتيل كل المدينة، صديق البسطاء. كان مسجى كزعيم حقيقي. توافد جماعات من الشباب والشيوخ. والنساء أيضًا يتوافدن إلى كوخه في مواساة أخته الوحيدة.

تشكلت طوابير طويلة في شدّ الرّحال إلى مقر البلدية للمطالبة بحق

الشهيد، علقت أول لافتة كتبت بحروف حمراء: «نريد القاتل».

وأخرى: «دم الشهيد لن يذهب سدى».

كل الأصابع تقريبًا متجهة صوب أشباح البلدية أو جيوبها المتخفية، أصوات متطرفة تدعو إلى ردم المقر الوسخ، يقول قائل:

منذ وطأت قدماي المدينة الصغيرة في منتصف الثمانينيات قادمًا من إيفري، أحمل في جعبتي القليل من الكلمات والشعر، عرفت عمي السعيد، الوحيد القادر على جلب انتباهك، بملبسه، بلغته العارية، في اللحظات الأولى يشدّك بحديثه أو تصرفاته العفوية، أو بصراخه أو بشفافيته وإفراطه في النقد اللاذع، بلغته الصدامية النزقة أحيانًا. من لا يعرف السعيد الدّق؟ المهبول أحيانًا، يقول حريقه عمدًا ولن تلمسه يد الدرك أو الشامبيط رغم كل التقارير التي يرسلها المدعو «الرجل الحديدي» في حقه الذي عاث في الأرض فسادًا.

قيل إنه سافر في حياته مرتين متباعدتين، الرحلة الأولى إلى مدينة تلمسان بحثًا عن عمل لكنه عاد إلى مدينته الصغيرة التي تكبر في خراب بدعم محلي، والمرة الثانية سافر إلى مدينة عنابة على خطى الشاعر الأمازيغي الكبير «سي محند أو محند» كونه مغرمًا بشعره وسيرته ومجونه، في غفلة من الجميع عاد بوشم في ساعده الأيسر، لم يتأكد أحد منا هل يعود إلى الرحلة التلمسانية التي دامت أكثر من أسبوعين أو الرحلة العنابية؟ القليل من أصدقائه فقط الذين رأوا الوشم، الذي أخذ بعدًا خرافيًا وأسطوريًا وقصصًا كثيرة عن الوشم، هو وجه

بسيط لأنثى بلا ملامح، ربما تعمد الرسام إخفاء ذلك أو كانت رغبة السعيد الدّق، حرف وحيد واضح «هـ» كبير، الحرف يكاد يغطي الوجه والشعر الطويل. «هـ» يقولون قد يكون الحرف الأول من اسم هند، قد تكون هيبة قد تكون هجيرة إلى آخر القائمة رغم كل محاولات الجميع لفهم سر الوشم و»الهاء» التي صار يغطيها بكم قميصه صيفًا وشتاءً. لم يتجرأ أحدنا على التقرب إلى هذه المنطقة بالذات، كأنه قفل على قلبه نهائيًا ولم يتمكن أقرانه أبدًا أبدًا من إغرائه بأخذه مثلًا إلى بيت الدعارة: «تبًا لكم» كان يقول بحزن.

حتى لا يأخذني هذا المنحى المثالي الجميل في شخصية السعيد الذي له مساوئه أيضًا، وإشاعات تلاحقه إلى يوم وفاته، ليس بسبب «هـ» التي نجهل عنها الكثير من التفاصيل، بل لسبب آخر، قد يكون أكثر غموضًا والتباسًا من الوشم. كان سببًا في وقوع حرب هامشية لفترة غير قصيرة، إلى أن أخذت موقعها الطبيعي ضمن يوميات مدينة «ب» ومن قصصها المشوقة. تعود حكاية علاقته بأرملة سمراء، «يامنة» الممرضة إلى منتصف الثمانينيات، كان الأمر محصورًا بين ثلاث شخصيات، واضح من ترتيب كرنولوجيا الأحداث والحبكة أن الثلاثة لا شغل لهم في حقيقة الأمر إلا متابعة ملف معقد وسري للغاية، كانوا يتبادلون مواقعهم في المقاهي الثلاثة، يتنكتون، يرممون الفراغات التي قد نسوها في الحلقة السابقة أو التي لم يشأ أحدهم قولها.. ينشرون الغسيل بالمجان لا أكثر، فالقصة كانت سرًا تتناقلها الألسن لبضعة أيام إلى أن وصل الأمر إلى

أخيها الذي هجم على السعيد الدّق في مقهى «النافورة» صباحًا، نجا من موت محقق، ولم تسلم «يامنة» من أظافر أخيها الذي جرها في باحة المستوصف الصغير أمام مرأى الناس والزبائن والمرضى.

شغلت تلك القصة سكان المدينة الهادئة لفترة غير قصيرة، عمي السعيد يتحاشى الظهور علانية، اختفى لشهر كامل. كان للقصة مذاق خاص ومرارة عند غيابه وحزنه الشديد بسبب اللكمة التي شوّهت وجهه لأيام، كأنه لم يصدق ما حدث له في مقهاه الجميل.

في نظر العذريين الجدد الذين ملؤوا الفراغ في الساحة الوحيدة أو داخل المركز الثقافي البسيط ينظرون إلى الموضوع باحترام كبير، كيف ليامنة الهزيلة أن تزيح «هـ» من العرش؟ فتجدهم يلوكون القصة ويخلقون عدة نهايات محتملة لقصة مثيرة بالفعل. كيف استطاع أن يسرق الأضواء بتلك الومضات القوية؟ كيف ويامنة التي تبدو متأنقة وعفيفة يميل قلبها بذلك العنف؟

أين كانا يلتقيان؟

هل صحيح يلتقيان في الطاحونة القديمة كما يشاع؟

عندما عاد إلى المدينة بعد العاصفة الهوجاء، تجاهله البعض لأيام، واقترب البعض الآخر طمعًا في المزيد من التفاصيل، لكن لا يقدر أحدهم على فتح الجرح مجددًا ولا أحد بإمكانه فتح الملف ثانية. في الليل ينساه الجميع بما فيه البهوميون الذين ينامون تحت جسر

القطـار، عندمـا يـروه يحمـل جسـده ماشـيًا عـلى قدميـه يحمـل خبـزة وحيـدة وقلبـه، يتمـشى ببـطء شـديد. إلى أن مـات ليلـة العشريـن مـن شـهر سـبتمبر في حـادث أليـم.

مـن الممكـن جـدًا بـدأت القصـة بشـكل مختلـف عـن هـذه البدايـة التـي أتصورهـا الآن، شـخصية تشـبه بايـة تقتحـم خلـوتي بـإصرار عجيـب، كنـت أراهـا تبـكي، لأني شـككت في نواياهـا وهـي تُقْـدم في غيـابي عـلى غنـاء أغنيـة حزينـة مطلعهـا: أيـن أنـت يـا عزيـزي والمطـر يهطـل..؟ عـلى إثـر الخـلاف العائـلي البسـيط الـذي أخـذ شـكلًا حلزونيـا دائريًـا لزجًـا مـن كـثرة الاجـترار شـبه اللحظـي المتسـارع، خرجـت مدعيًـا أني لا أعـود إلى البيـت الموبـوء ببومـة مشـؤومة، متناسـيًا أني في شـهر مهـم فاصـل بـين مـا كنتـه ومـا سـأكونه، لكـن لم يـدم طويـلًا، قبـل يومـين أو ثلاثـة قالـت في ظلمـة الليـل وهـي بـين يـدي كالعصفـورة التـي تبحـث عـن عـش دافـئ: «أحبـك». دخلـتُ في غيبوبـة مؤقتـة، وفي روايـة أخـرى تقـول الشـاهدة الوحيـدة عـما جـرى في أيـام الخطوبـة أنهـا وقفـت في المنطقـة الرماديـة لم تقـل نعـم ولم تقـل لا. لم يكـن غضبـي إطلاقًـا يتعلـق بعـدم تفوقـي في نـشر القصـة الأولى، ولم يكـن بسـبب الأغنيـة الحزينـة التـي أكرههـا الآن، حقيقـة لا أدري إن كان بسـبب الشـاهدة التـي وسوسـت في أذنيّ أكـثر مـن مـرة. فتزامنـت بدايـة النّـص مـع مشـكلات النـدرة فعـلًا، لم تكـن لي الشـجاعة الكافيـة لأسـمي الأسـماء بأسـمائها فتخيلـت «هـذا مؤكـد لـن أنسـاه» مدينـة خرافيـة سـميتها عـلى غـرار ماكونـدو التـي أبدعهـا ماركيـز: أفتيـس العظيمـة البهيـة، ببراكاتهـا

الزنكية المجاورة لمبنى البلدية الفخم وإطلالات «الكوموندو» الذي يقود جيشًا من العمال والموظفين كقائد أوركسترا لا يغفل عن أدنى حركة قد... إذ كانت هادئة بالفعل في أوائل أيلول، لا شيء فعلًا ينغّص عليّ طمأنينة كتبت منذ الأزل على أهالي أفتيس المسالمين، بدليل تلك القيلولات التي يقضونها بعيدًا عن الحرّ الشديد، وبعيدًا عن ضجيج الشاحنات التي تخترق أجواء أفتيس، ماضية من الشرق إلى الغرب وتلك القادمة من الغرب إلى الشرق، حافلات، وسيارات أجرة، فساعات المساء كانت تحلو حقًا بتلك الحركة الدؤوبة وهم يخرجون من بيوتهم ومن أحلامهم يتمرغون في ساحات ضيقة مغبرة، يملؤون الكراسي الحديدية والخشبية في صمت أثيري جميل يراقبون تلك الرحلات الأسطورية للحافلات والسيارات الذاهبة الآيبة في غير كلل.

كانت أفتيس هادئة غارقة تمامًا في نوم عميق، تجاوزت الساعة الرابعة بقليل، كلمات باية/غادة (تمويهًا) تخترق طبلة أذني، قليل من أناس خرجوا للتو من أين؟ لا أدري، ذلك غير ضروري في تلك الساعة الغامضة، فشيء ما يزحف من كل الجهات، قد يكون غولًا، كنا دواخل أنفسنا والحر يخرجنا من قشورنا الجلدية المليئة شقوقًا بفعل الجفاف، كنا في انتظار الغيث، نسمع رعدًا بعيدًا بعيدًا جدًا، عيون في الأفق، يشير أحدنا بيده للجار الذي يتثاءب، المطر، الرعديّ قادم والآخر يرد من نومه المتقطع يبدو أنه نام في المقهى: استر يا رب. وثالث غير مصدق أن المطر يصل أفتيس في مثل هذا التوقيت، تعرفون جيدًا

أنها أصيبت بلعنة ما. يستمر الحوار السريالي لدقائق، تخترقه الأمثال الشعبية والأمنيات والسأم، حوار طرشان، بينما النادل يستغرق في تأملاته بعينين زجاجيتين مفتوحتين. يتفاقم الصداع في رؤوس رواد مقهى «مختار». ثم يصمتون، مختار هو الآخر ينتظر أحدهم بطلب قهوة أو قازوزة. لا أحد يطلب شيئًا منه.

فإذا بصوت يأتي من بعيد ثم أصوات جماعية: طوفان.. طوفان.. ماء.. طو.. وبكاء أخيرًا، كان أحدهم يبكي، عويل.. نساء.. طو..

نخرج مرغمين، أستيقظ من كابوس آخر القيلولة في مقهى مختار أتعرق، أحدهم أراه يقفز في الهواء كمجنون لا يعرف كيف يتصرف، أنا أيضًا لا أقل جنونًا منه، أجري وأسقط بينما أصوات كثيرة في هلع لا مثيل له، شكّل سيمفونية تصدع أدمغتنا الهشة. طوفان.. ماء.. عليك أن تجري إلى أين؟ لا تجد من يجيبك، كانوا يهربون. فجأة وصل السيل الأول كغول مخيف محملًا بالأتربة والبراميل وهياكل السيارات وجذوع الأشجار والأبواب الخشبية والحديدية، نجري في صعود متعثر بحثًا عن نجاة، في صعود يكاد يكون مستحيلًا في سقوطنا المتكرر وشلل شمل قلوبنا وأقدامنا التي تتلوى من الرعب.

حوّل الطوفان المدينة السفلى إلى مهرجان من الألوان: البني والأسود والأحمر. وصلنا إلى الجهة العليا والبعض الآخر منا لم يكن له الوقت الكافي للوصول إلينا فاختصر الطريق إلى المبنى الضخم الذي يسمى مقر البلدية، فالسيول القوية تجرف كل ما وجدته أمامها

منتشية بالخراب، بالتطهر المجاني لمدينة ملعونة، ها هو الطوفان يغرقها بالكامل، والكومندو القائد لم يصل بعد، لن يصل.. يقول قائل خرج للتو من الوحل، يجمع هيكله العظمي من السيل الجارف ومن الشتائم والصراخ. يلتحق آخر بركب الشاتمين..

بالإضافة إلى إشاعة زرعها أحدهم في فجر صبيحة اليوم تخص منطقة سياحية رائعة، بالاستيلاء الذي وقع من طرف جهات نافذة عليها، بتواطؤ محليّ، بالإضافة إلى غياب الكومندو عن أكبر طوفان مساء الخميس عاشته بلدته الكبيرة المسماة مدينة في فترة توليه زمام الأمور، وغياب سيارات الإسعاف والمشفى؛ فالسيول التي جرفت المكاتب والملفات والصور والوثائق، نراها تسافر بكل حرية في الأزقة نازلة إلى الساحة المركزية، ليس كل هذا، عيوننا مشدوهة.. مشدوهة حقًا إلى فضيحة أكبر من الطوفان، طفت كل الأوقية الذكرية! أين المشكلة؟ المشكلة مستعملة.. ليكن، ربما جرفتها السيول من البيوت المهدمة تخص متزوجين. طبعًا هناك في «ب» من يستعمل ذلك الوقت المبكر الواقي الذكري. للتاريخ، (أكيد كتبت هذا الهبل لأني رأيته بأم عيني) يقولون بصوت جماعي لكنها خرجت من المكاتب؟ نسينا الطوفان.. أصابع الضحايا متجهة إلى المبنى الضخم، لا شيء سوى الاعتراض بصمت أثيري، بعبارة أخرى لا يمكنك أن تعارض قدرك، أن يكون السيد مسؤولًا عليك، أو هو الذي سيقرر في مصيرك.. بإمكانك أن تقرأ جملًا كثيرًا في وجوههم الغاضبة مع كثير من اليأس. آه، يصل عمي السعيد أخيرًا إلى

الساحة المركزية الملوّنة بكل ألوان الكآبة، كان آخر الواصلين في اللحظة التي يجمع فيها سكان البراريك أشياءهم التي لا تزال تصلح. وقف مطولًا أمام الركام من الهياكل الطافية، أمام العلب الكرتونية والأكياس والأغطية والأحذية والأ..

ساعة بعد ذلك تمكن السعيد الدّق من جمع عدد من الفضوليين والشبان، لم يكن خطيبًا في يوم من الأيام لكنه جرّب تلك المرّة التي قال فيها طز ياس... عشرات ثم مئات من الضحايا كانوا خلفه يعددون مآسي بلدة سميت ظلمًا بمدينة يفتخر بها السيد في حانات باريس إنه je suis maire de aftisse[5] بينما رواد الحانة يتضاحكون، يسألونه كيف لبرميل مثلك يقود بلدة تسمى أفتيس؟ أين تقع أفتيس؟ يشير بيده إلى جهة القلب مدعيًا أنها في القلب لكنه يخطئ الطريق فيشير (ربما) عمدًا إلى جيبه... يضحكون.. في وقت يفرغ النبيذ في جوفه على شرف معرفتهم بأفتيس العالية، المدينة الأسطورية التي يحج إليها السياح الأجانب؟

يواصل السعيد الدّق المفجوع بالطوفان الذي وصل إلى أطراف كوخه، بثورة غير متكافئة معهم، مستهزئًا بحيلهم السخيفة لوقف زحفه الأخير نحو القصر... في صبيحة ٢٥ أيلول فجرًا، داهمته سيارة أو شاحنة مجهولة، لم نصدق رواية المبنى الذي سرب تفاصيل الرواية بتوصل رجال الدرك إلى توقيف الجاني، في شرق البلاد ويتعذر إعادة

٥ أنا رئيس بلدية أفتيس.

الجـاني إلى البلـدة لأن القانـون سـيأخذ مجـراه هنـاك أو في مـكان آخـر....

وصلـت أول مظاهـرة إلى المبنـى الضخـم، فجـأة صعـد، «رأيتـه أول الصاعديـن يحمـل قلـمًا وآلـة فوتغرافيـة» جعفـر بوجـه مقنـع، كان يكتـب شـيئًا وتـارة يلتقـط صـورًا؛ فاندلعـت شرارة الثالـث مـن أكتوبـر لأسـباب كثـيرة، ممكـن مـن أجـل النـدرة التـي فبركهـا ممونـوا سـوق الفـلاح، ممكـن بسـبب اسـتيلائهم عـلى المنطقـة السـياحية: تيكجـدا. ممكـن لأسـباب أجهلها.

لا أظنـك قـرأت هـذا في «جزائـر» التـي كتبها شـاب مـن الجزائـر العميقة القـادم نحـو المسـتقبل، إلى آخـر القـول مدعومًـا بالصـورة والأيـادي التـي تقتنـي الروايـة التـي وصلـت إلى مدغشـقر وهافانـا وأصدقـاء الجزائـر في روسـيا الذيـن ينـوون ترجمتهـا قريبًـا.

كنـت أسـير في الشـارع الرئيـسي أشـبه بطـل «هـنري مللـير» أحمـل في داخـلي كتابًـا، أصـارع العناويـن التـي تتراقـص في ذهنـي، أكتـب بعضهـا عـلى أوراق صفـراء، بنفسـجية، في كراسـات صغـيرة، أشـطب.. أسـتزيد بحثًـا عـن عناويـن أكـثر مأسـاوية تعبـيرًا عـن المرحلـة: ربـع السـاعة الأخـير، اللعنـة، النهايـة... إلى غيرهـا مـن كلـمات حارقـة تسـتفزني كعناويـن كبـيرة عـليّ كتابتهـا، كأني أسـتبق الأمـور، يقـع السـور القديـم عـلى جسـد «س» المدعـو الرجـل الحديـدي، يهشـم رجليـه الضخمتـين، رافـق الحـدث ضحـكات الشـامتين، هـي لعنـة عمـي السـعيد الأولى، ثـم يليهـا الفيضـان الكبـير بعـد أيـام فقـط لم تعشـه مدينـة «ب» منـذ قـرن. في لحظـات أصبحـت عائمـة غارقـة في وحلهـا. هـل تسـألني إن هجـرت بايـة لأيـام؟ أبـدًا لا، أو تظـن إنـه

الحنين إلى ويزة؟ ممكن، في وعيي لم تفارقني تلك الابتسامة الساحرة، مطلقًا لم تفارقني تانك اليدين البيضاوين. مع ذلك كنت أعود إلى البيت مستهلكًا، ممزقًا، أمتص المشاهد في أوراق بيضاء كثيرة. كانت تراقب كل ذلك بتأفف، بغير حماس.

-٥- الشبح

لا أعـرف إلى أيـن يأخـذني هـذا الـتردد، مـن المفـترض أني أنهيـت الروايـة، بدليـل أرسـلت للتـو المخطـوط لأربعـة أصدقـاء ثقـاة، أحدهـم مـن شرق البـلاد والآخـر مـن الجنـوب وآخـر مـن الشـمال وأخـيرًا صديـق لي يسـكن فعـلًا في مدينـة البويرة،أسـتدل بـه لأنـه يعـرف المدينـة أكـثر منـي، إذا اقتـضى الأمـر سأكشـف عـن أسـمائهم، وشـخصيات معروفـة لهـا إسـهاماتها الكبـيرة في الثقافـة والأدب.

خرجـت مـن محـل الإنترنـت وأنـا سـعيد بالنهايـة، بقـي فقـط أنتظـر تصحيحاتهـم وآرائهـم باعتبارهـم كتابًـا وأكاديميـن، مـع أني أعـرف مسـبقًا بعـض تسـاؤلاتهم النقديـة كتلـك التـي تتعلـق بالغمـوض الـذي لـف الطبيـب النفسي، لمَ لم أحسـم في أمـر وفاتـه مـن عدمهـا ومـن قـام بالفعـل المـادي بمحاولـة اغتيالـه أو باغتيالـه فعـلًا؟ أهـو الرينقـو أم أخـوه؟

لم أفعـل ربمـا بسـبب التعـب الـذي أصابنـي طيلـة هـذه الفـترة الطويلـة التـي أكتـب فيهـا، ثـم هـي شـخصيات تعايشـت معـي كل هـذه المـدة «أكـثر مـن سـنة» يأكلـون

معـي، ينامـون، يزعجونـنـي بجمـل قصـيرة فأسـتيقظ لأكتبهـا، فأشـتمهم بلغـة الشـارع التـي لا أعرفهـا مـن قبـل.. لم أحسـم في قضيـة موتـه، ذلـك يتطلـب تقنيًـا كـذا صفحـة وتحقيقًـا مضنيًـا وسـأبحث مجـبرًا عـن شرطـي مختـص لكشـف ملابسـات القضيـة، في الأصـل لم أنـو كتابـة روايـة بوليسـية وأنـا أكـره هـذا اللـون مـن الروايـة، مـع احترامـي الكامـل لكتابهـا..

لم أقـل أيضًـا في بدايـة المـتن أنهـا روايـة خياليـة لا علاقـة لهـا بالواقـع، لا أحتـاج إلى قـول ذلـك ليصدقنـي القـارئ، لأنهـا فعـلًا خياليـة، وأنـا متأكـد جـدًا أنهـا مـن نسـج الخيـال، بـل مـن المسـتحيل أن يتصـادف هـذا المشـهد أو ذاك مـع شـخص واقعـي. احتطـت كثـيرًا وبجديـة حتـى في اختيـار أسـماء الشـخصيات حتـى لا أقـع في ورطـة حقيقيـة واقعيـة تجـرك إلى سـاحة المحاكـم.

عـدت إلى البيـت أقـل سـعادة، بسـبب تلـك الأسـئلة التـي فاجأتنـي عـلى حـين غـرة، مـع أن الوقـت لم يحـن بعـد لإرسـال المخطـوط في بروفـة أخـيرة. قـد أحتـاج لأسـبوع إضـافي أو أسـبوعين عـلى الأكـثر لأبحـث عـن نـاشر محـترم.. ولـو أني منـذ البدايـة قـررت إرسـال الروايـة إلى دار نـشر «سـين».

على كل لم يحن الوقت بعد.

في الليل فاجأتني رقصة، أو بي رغبة في الرقص، كنت وحيدًا، أتباهى بالنهايات التي توصلت إليها وبسعادة فيما يتعلق بسفيان عبد الجليل، باسترجاعه لقلمه ولحسه الفني والإبداعي، كأني أعيد الأمل لكل من فقده بفعل إنساني أو بمؤامرة، وإذا بالإعلامية الجميلة «وردة كامل» في حصتها الشهيرة: أوراق ثقافية، تستضيفني، والله رأيت نفسي في الشاشة.. بينما أنا في آخر لحظة بطلت الرقص عند سماعي لصوت وردة كامل وهي تتحدث بصوتها الملائكي عن آخر إصدارات سفيان عبد الجليل، جلست على الأريكة، تقدم ضيفها بشكل ساحر، مؤلف رواية «جزائر» قبل أيام نشر رواية «الطوفان».

أهلًا بك سيد سفيان عبد الجليل.

رد بابتسامة عريضة وعيناه مركزتان على عدسة الكاميرا متعمدًا تصرفه ذاك المستفز، لكياني ككاتب حقيقي، صنعته.. وإذا به يتمرد بشكل غير أخلاقي تمامًا:

مساؤك جميل سيدتي، ومساؤكم طوفان من الكلمات والشعر والسحر...

من صنع الآخر، أنا أم هو؟

لم أسمع كل الحوار، لأن الحمى باغتتني، أتحسس

أعضائي إن كنت أنا بالفعل، وحيّا وفي الصالون، بالطابق الرابع وأمامي النسخة الورقية... ها هي أمامي، وهو يقرأ منها.. بين الحين والآخر متعمدًا الإساءة إليّ بنظرته المتعالية محدقًا فيّ برعب لا نظير له.

البـكاءة... هـي دمـوع الجزائـر، أول مـا سـيقف عنـده القـارئ هـو الحـس الفنـي الـذي غـدا عنـد الكاتـب أكـثر حـذرًا مـن تداعيـات الجمـع بـين الـروائي والتاريخـي، خاصـة حـين تنقـل الروايـة إلينـا التاريـخ في صـورة مبسـطة جاهـزة تجسـدها وقائـع عايشـتها شـخصيات فنيـة ورقيـة، قـد يكون هـذا الحـذر هـو الـذي دفعـه إلى الغـوص في أغـوار نفسـيات شـخصيات مأزومـة قلقـة مـترددة: الكاتـب المذمـوم الـذي ينكـر الروايـة ويعيـش حالـة محاكمـة مسـتمرة تمارسـها عليـه شـخصياته، والطبيـب النفسـاني هشـام عبـدي الـذي يفقـد الاسـتقرار حتـى وإن اسـتقر في بويـرة، بعـد أن سردت عليـه مـآسي مرضـاه؛ ضحايـا الحقبـة الدمويـة، وعنـوان الروايـة المـتردد بـين حرائـر وجزائـر، ونظـرة الريبـة السياسـية التـي تترصـد نـشر الروايـة، وبايـة وسـفيان والرينغـو... تعيـش هـذه الشـخصيات وغيرهـا عـددًا مـن التحـولات والتوتـرات وهـي تسـهم -خاصـة بسـلبيتها وصراعهـا الوهمـي- في شـتى السـقطات السياسـية المرجعيـة التـي أنتجـت صـورًا متعاقبـة لأكـبر الخيبـات في تاريخنـا المعـاصر. روايـة جيـلالي عمـراني الجديـدة «البـكّاءة» وفيـة للتفاعـل مـع الحـدث التاريخـي: فبحـدس الـروائي الـرائي يبـدأ جيـلالي مـن ٥ أكتوبـر ١٩٨٨ ليعلـن بطريقـة مـا عـن وجـود رغبـة عارمـة كامنـة ثانيـة في التحـول العميـق، ثـم ينتقـل إلى التسـعينيات مـن القـرن المـاضي ليفضـح اسـتمرار إرادة سـوداء قديمـة في إبقـاء الجزائريـين بعيـدًا عـن كل أمـل. التاريـخ، السياسـة، العـالم النفـسي... هـي حـالات إنسـانية دقيقـة تنسـق بينهـا لغـة شـفافة سريعـة متفتحـة لتقـدم لنـا تجربـة جزائريـة جديـدة مبـشرة بكثـير مـن الغيـم الـروائي.

الدكتـور إبغـورا محمـد الصديـق

جيـلالي عمـراني مواليـد ١٩٦٩ روائي جزائـري، بـدأ النـشر في بدايـة التسـعينيات مـن القـرن المـاضي. نـشر عـددًا مـن القصـص القصـيرة في الصحـف الوطنيـة..

وروايات منها:

- المشاهد العارية.

- عيون الليل.

- أحلام الخريف.

قراؤنا الأعزاء.. تحقيقًا لحلم التواصل بين الكاتب والقارئ ودور النشر، والاهتمام بمعرفة رأيك دائمًا ننتظر أن تتواصل معنا لتقييم أعمالنا عبر الإيميل، أو عبر صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، من أجل تحقيق حلم بناء جيل واعي ونثر بذور الثقافة بالمجتمع والمناداة بتنشئة عقول أساسها الثقافة والعلم.

مدير النشر: أسماء فخر الدين

شهرزاد للنشر والتوزيع

E-mail: shahrazadpub@gmail.com

facebook: Shahrazadpub

shahrazadpub٢٠١٥

twitter: shahrazadpub

للشراء عبر صفحة البوك ستور الإلكتروني:

صفحتنا على الفيس بوك: شهرزاد بوك ستور